المستدين

قصة بقلم

محمد بن ناصر العبودي

المستديـــــن

قصة

بقلم

محمد بن ناصر العبودي

ⓒ محمد بن ناصر العبودي ، ١٤٣١هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العبودي ، محمد ناصر عبدالرحمن

المستدين / محمد ناصر عبدالرحمن العبودي -
الرياض ، ١٤٣١هـ

١٢٠ ص ؛ ١٧ × ٢٤ سم

ردمك : ٤-٤٥٧٥-٠٠-٦٠٣-٩٧٨

١- القصص العربية القصيرة - السعودية

أ- العنوان

ديوي ٨١٣,٠١٩٥٣١ ١٤٣١/٢٧٢٧

رقم الايـداع: ١٤٣١/٢٧٢٧

ردمك: ٤-٤٥٧٥-٠٠-٦٠٣-٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٢هـ / ٢٠١١ م

بسم الله الرحمن الرحيم

لاقط بن باتع الحصاد من أهل قريـــة زراعيـــة صـــغيرة تســـمى (المتطرفة) قريبة من بلدة في وسط الجزيرة العربية الشـــمالي كـــان أبوه (باتع الحصاد) فلاحاً بن فلاح لم يعرف في حياته مهنـــة غيـــر الفلاحة ولكنه ليس ملاكاً ، فكل الفلاحات التي عمل فيها كانت لأنـــاس آخرين يتفق معهم على أن يفلحها بجزء من التمر الذي يحصل عليـــه سنوياً من نخله لأن عماد تلك الفلاحة هو النخل فيعطي لأهـــل النخـــل الربع من محصول التمر ويكون له الباقي على ما يحصل عليـــه ممـــا يزرعه من برسيم يحتاجه علفاً لماشيته التي هي السواني وهي الإبـــل التي يسنى عليها ويستخرج عليها الماء من البئر عن طريـــق ســـحبه بأوعية من الجلد يسمونها ((الغروب)) .

كما أنه يحتاج البرسيم أيضاً للبقرة الوحيدة عنده التـــي يحلبهـــا ويستفيد من لبنها وزبدها إداماً لطعامه وطعام عياله ، وقد نشأ (لاقط) كما نشأ والده بل أقل من ذلك لأنه أمضى جزءاً من أول عمره عـــاملاً عند أحد الفلاحين وقد عزم على أن يكون فلاحاً مثل والـــده فمشـــكلة (لاقط بن باتع الحصاد) أنه لم يكن عنده رأس مال عندما بدأ فلاحتـــه يشتري به إبلاً يسني عليها ، ولا بقرة يحلبها ، وليس عنده حتى شيء من الملابس له ولأسرته لذلك كان مضطراً إلى أن يستدين مـــن أحـــد

التجار في البلدة القريبة من قريته مع علمه وعلم غيره من أهل بلـده أن التاجر لا يرحم ، وأنه يتعامل حتى بالربا غير أنه يتحيل عليه بحيل عديدة ، فيسميه بغير اسمه .

من ذلك أن (لاقطاً) عندما أراد أن يبدأ فلاحته احتاج إلى مائـة وعشرين ريالاً من أجل شراء ناقتين يسني عليهما وذلك بستمائة وزنة تمر والوزنة تساوي كيلة قرام واحداً ونصفاً ، وكان التمر في السـوق يباع الوزنتين بريال ، ولكن التاجر اتفق معه على أربع وزنات بريـال بحجة أن الوزنتين الزائدتين هما مقابل التأجيل لحلول الدين بعـد أحـد عشر شهراً حيث وَفَّتَهُ بأوان محصول التمر وحذاذ النخل .

لم يكن أمام (لاقط) أي خيار آخر ، بـل إنـه صـار يـدعو للتـاجر أمام سمعه لأنه دينه ، لأنه لن يجد وسيلة له لسد رمقه ورمق أسـرته من عيش خشن .

اشترى الفلاح النـاقتين فرحـاً ولكـن مشـكلته أن الإعـداد للسـني يحتاج إلى مبلغ من المال يشتري به أرشية وهي التي يسـتخرج بهـا الماء من البئر وغروباً وهي الدلاء الكبيـرة – جمـع دلـو – ولابـد أن تكون من جلود الإبل القوية كما يحتاج إلى بكرات كبيرة توضع فوق القليب لذلك عاد إلى التاجر وقال له : يا عم ، الفلاحة مثلمـا تعـرف

تحتاج إلى عدة وهذا يحتاج إلى دراهم وأنا ما عندي شيء من ثمنها فأرجو منك أن تديني (٤٠) ريالاً أخرى .

فقال التاجر : أنا دينتك بمقدار حقك من ثمرة النخل إذا ساعده الله وأثمر ثمرة من الصواديف ، ويا لله يوفي الدين الذي عليك للناقتين .
كيف تريد مني أدينك دين جديد ما عندك له مقابل ؟
لم يجد لاقط إلاَّ أن يقول للتاجر : يا عم ، أملنا في الله قوي أن ثمرة النخل تصير جيدة ونوفيك الدين الأول ونوفيك الدين الجديد .
فقاطعه التاجر قائلاً : قل وآكل أنا وعيالي أيضاً كل السنة من الثمرة .
فقال ذلك تبعاً لما قاله التاجر ، وليس إيماناً بأن ذلك سيحصل .
فقال التاجر : هذا غير معقول !
فقال الفلاح : ولكن – ياعم – ما نصنع ؟ هذا شيء لابد منه ،
فقال التاجر : أدينك على ما قلت على ثمرة العام المقبل الذي بعد ثمرة النخل المقبلة التي تجيء بعد أحد عشر شهراً .
ومرة أخرى لم يكن بيد الفلاح إلاَّ أن يوافق على ذلك ، بل إنه شكر التاجر عليه ، إلاَّ أن التاجر أضاف قائلاً : أنت تعرف أن الدين لسنتين ما هو مثل الدين لسنة واحدة .
الدين لسنة أربع وزان بالريال لكن لسنتين ست وزان بالريال !! .
فقال الفلاح : لكن يا عم التمر الآن بالسوق الوزنتين بريال .
فقال التاجر محتداً : هو أنا الذي قلت لك : تعال تدين مني لسنتين وإلاَّ أنت ؟

لا تدين لسنة ولا لسنتين غير الذي تدينت مني .

وكان التاجر يعلم أنه لا يمكن أن يستدين من غيره لأنه رهن عليه بدينه كل ما يملكه وما تحت يده ما قد يملكه أيضاً ، بحيث إن جميع ما يملكه وما قد يملكه في المستقبل مع أنه لا ينتظر أن يملك شيئاً في المستقبل فإنه مرهون لذلك التاجر قال (لاقط) للتاجر بلطف : يا عم ، أنت عمنا ، ولا ودنا تزعل علينا ، لا بأس على ست وزنات بالريال .

فاحضر التاجر كاتباً مشهوراً معروفاً بضبط الأمور ، بحيث يضبط العبارات التي ترد في الوثيقة لصالح التاجر ، مع أن تفسير ذلك معروف وكله في مصلحة التاجر لأنه الأقوى بالنسبة للفلاح المسكين الذي هو الجانب الأضعف .

بدأ (لاقط) العمل في الفلاحة فكان يعمل فيها بنفسه تساعده زوجته واختان له ليس لأية واحدة منهما زوج ولا مورد رزق ، وابنة له في الثانية عشرة من عمرها ولكنها رغم صغر سنها تسهم إسهاماً حقيقياً في العمل بالفلاحة عن طريق سوق السواني ، وحصد العلف .

وعن طريق الذهاب بالبقرة لترعى من بعض الشجر الموجود بالقرب من مكانهم ، وله أم كبيرة لا نفع فيها لأحد من الأسرة إلاَّ بالدعاء فهي تدعو الله لابنها ولأسرتها بالخير ولا تكاد تخرج من مكان صلاتها .

أما ابنه عبد الرحمن وليس له غيره من الأولاد إلاَّ تلك البنية فإنه كان في العاشرة من عمره ومع ذلك وجدوا له في العمل في لفوف العلف

للإبل السواني وذلك أنهم يحضرون شجراً من شجر البر المرّ كالحمض والشنان ويلفون عليه بأعواد من البرسيم يربطونها عليه ويلقونها في فم البعير الذي يسني يوهمونه أنها من البرسيم ، وتنطلي الحيلة على البعير وتحمله الحاجة إلى العلف فيأكلها .

أما أمه التي هي كبيرة السن وعليلة فإنه لا يكلفها شيئاً من العمل لأنها لا تستطيع ذلك وإنما كان يطلب منها دائماً أن تدعو بأن يوفي الله عنه دينه وأن يستره وذريته عن الجوع والحاجة إلى سؤال الناس .

كانوا يعملون كل ما تحتاجه الفلاحة بأنفسهم ولم يحضروا أي عامل ، لأن العامل يحتاج إلى الأجرة ولو كانت ضئيلة فإنهم لا يملكونها وكما أنه يحتاج إلى طعام هم أحوج منه إليه .

القوت الضروري :

لم يكن لدى (لاقط) شيء من الطعام لأسرته عندما بدأ العمل في الفلاحة ، ولذلك كان مضطراً إلى شيء من التمر لوجبة الغداء التي لم يكونوا يعرفون غير التمر فيها ، ولكن كيف له أن يحصل على شيء من ذلك التمر الذي لا يوجد في السوق ولكن يحصل عليه من يملك ثمنه وليس (لاقط) منهم ، ويوجد أيضاً عند التاجر الذي تدين منه واسمه (ملحوق بن تَلاَّس البصاط) .

ذهب إليه الفلاح المسكين سيراً على قدميه من فلاحته في وقت الغداء ، وهو وقت الضحى ، أملاً في أن يصادف ذلك وقت تناول التاجر لوجبة الغداء من التمر والزبد وللبن كما هي عادة التجار أمثاله .

وقد دله على أن التاجر يتناول غداءه المذكور أنه لم يجده في (دكانه) فعرف بالفعل أنه يتغدى في بيته وأنه سوف يعود إلى دكانه بعد الغداء ، وذلك في نحو الحادية عشرة ضحى .

فطرق الباب على التاجر ولكنه لم يستجب للطرق وقد كرر (لاقط) طرق الباب حتى فطن أن كل الذين في الدار قد سمعوا طرقه وأنهم لم يستجيبوا للطرق عمداً ، فترك باب البيت كاسف البال .

وعاد إلى الدكان الذي لم يلبث أن فتح لأن التاجر فرغ من غدائه الشهي النفيس في نظر الفلاح الجائع .

وكانت تبدو على التاجر (ملحوق) علامات الشبع من طعام دسم من ذلك آثار لبن وزبد على أنامله لم يغسلها بما يبعد الدسم عنها فلم يكن من عادتهم ذلك ولم يكونوا يعرفون الصابون في ذلك الوقت وكانت تلك الآثار واضحة لمثل هذا ا لفلاح الجائع الذي يراها بحكم حاجته وإن كان غير ذوي الحاجة منهم لا يحس بها فضلاً عن أن يراها لأنها مثل الصحة التي هي كالتاج على رؤوس الأصحاء لا يراه إلاَّ المرضى ، والمرضى هنا هم الجائعون مثل هذا الفلاح المسكين الذي خلفه أفواه عديدة من أسرته تتطلع إلى ما يتطلع إليه من شبعه ، أو على الأقل من كفاية من التمر .

بـــادر التـــاجر (ملحـــوق) مدينـــه الفـــلاح المســـكين بقولـــه : (هاه ويش تبي بعد ؟)

فتصبب الفلاح عرقاً وقال بحسرة ومسكنة : والله يا عم حنـــا جـــايعين مثل ما تعـــرف مـــا عنـــدنا شـــيء نأكلـــه ، والله مـــا فـــي فلاحتنـــا ولا تمرة واحدة تحط علـــى القرصـــة وقلـــت : نـــروح لعمنـــا يـــدينا خمسين وزنة تمر إن شاء الله إننا نقتصد فيها ونوقتها لمدة طويلة لما يفرج الله لنا فحنا بذرنا مليساء وشامية أنت تعرف أن الـــدخن ســـريع لو هو ما هو زين .

فقال التاجر :

وضِّح لي الذي تريد ، قال ذلك وهو يعلم ما يريده ولكنـــه فعـــل ذلـــك سخريةً به ولكي يهيئ الأمر في ذهنه لما يريد أن يعامله به .

كان التاجر يعلم أن الذين عندهم تمر مثلـــه هـــم قليـــل وهـــم التجـــار من جنسه ، من الذي يشترون التمر من الفلاحين إلى أجل بربع قيمته ، ثم يبيعونه إليهم أو إلى فلاحين آخرين محتاجين بعد ذلك بثلاثة أضعاف قيمته إلى أجل كذلك .

فقال (لاقط) بتلعثم وانكسار : يا عم ابيك تديني خمسين وزنة تمر .

فقال التاجر : لكن من اين لك الدراهم التي توفيني منها ؟

فقال الفلاح : إن شاء الله – ياعم – ينزل الله بركة في الثمرة ونوفيكم دينكم كله !!! فقال التاجر : يا (لاقط) ماسمعت المثل الـــذي يقـــول : (عسى كحلها يسد عيونها) عسى ثمرة نخلك تكفي لأهـــل الأصـــل ، وتكفي لك وعيالك في القيظ – يريد أكل الرطب منهـــا – وتكفـــي أنـــك

توفيني ديني الذي أنا مدينك إياه علـــى الثمـــرة وإن بقـــي تمـــر بعـــد هذا والأحرى إنه ما يبقى شيء فأنت تحتاجه لك ولعيالك .

فقال لاقط : لكن – يا عم – ويش نسوي ما عندنا في البيت شيء !!!

فقال التاجر : اسمع يا لاقط ، أنت عميلنا ولا أنـــاب رادك بـــلا شـــيء ومخلي عيالك يجوعون ، أنا أبي أبيع عليـــك خمســـين وزنـــة تمـــر بخمسين ريال ، يعني كل وزنة بريال .

فقال لاقط بدون تفكير : لكن يا عـــم التمـــر علـــى وزنتـــين بالريـــال في السوق ؟

فقال التاجر محتداً : طيب أجل رح واشتر التمر من السوق الـــوزنتين بريال .

فقال لاقط ببلاهة : لكن أنا ما معي ثمن التمر .

فقال التاجر : فهمت – يا لاقط – الآن إن الدين ما هو مثـــل الحاضـــر وانك ما تلقى من يدينك هذا التمر مثلي .

فلم يكن بوسع (لاقط) إلاَّ أن يدعو للتـــاجر ، وكأنمـــا كـــان أعطـــاه ذلك التمر تبرعاً أو حتى بمثابة نوع من أنواع القرض الحسن .

وحضر الكاتب العارف بتضييق الخناق في كـــــتابته علـــى الفلاحـــين الذين يداينهم (ملحوق) التاجر ، وكـــتب وثيقة بذلك في دفتر التـــاجر لم يعرف الفلاح ما فيها لأنه أمي لا يقرأ ولا يكـــتب ، ولما حدثته نفسه أنه ربما كان في الوثيقة غير ما قرأه عليه ذلك الكاتب ، قال في نفسه : إذا كان الأمر كذلك فحسبي الله عليه هو وايا (ملحوق بن تـــلاس) يعني التاجر .

حمل الفلاح نصف التمر وهو (٢٥) وزنة ويساوي نحو (٣٧) أو (٣٨) كيلو غرام على رأسه ، فرحاً به لأنه سوف يدخل به على أولاده الجوعى ، على أن يأخذ النصف الثاني بعد ذلك وكانت حدثته نفسه في الطريق من المدينة إلى قريته أن ينزله من على ظهره ويشبع منه لما يحس من الجوع ، ولكنه قاوم تلك الرغبة قائلاً : هذا نحتاجه لأيام طوال وعيالي الذين في بيتي يحتاجونه مثلي .

ولكنه أقنع نفسه بأن يأخذ منه عدة تمرات وهو حامله على رأسه ، وقد شعر أنه بلغ التمرات مع نواياها لشدة جوعه وشوقه إلى التمر .

وعندما وصل إلى فلاحته صار يصيح بأهله وأولاده : أبشروا بالتمر ، جبنا لكم التمر !

وقد اشرأبت الأعناق إليه ، وتحركت الألسن في الأفواه وكأنما وقعت عليهم هدية من السماء ، لأنهم لم يكونوا عرفوا بما عاناه (لاقط) في الحصول عليه ولم يعرفوا ثمنه ، وأسرعت الأصابع لإلتاقط التمر ولكنه ردها عنه .

قال مخاطباً لهم : هذا طلع علينا الوزنة بريال .

فسارعت زوجته وقد فغرت فاها متسائلة : كيف تكون الوزنة بريال وأنت متدين قبل أيام ست وزنات تمر بريال ؟

فقال لها : هذا أيضاً دين ، واحمدي الله الذي حصلناه وإلاَّ من أين نأكل ؟

ثم قال لها يا أم عبد الرحمن هذا التمر صكي عليه بالمخزن وإلاَّ صكيت عليه ، واطلعي منه كل يوم الذي يملأ هالماعون – وأشار إلى إناء ملقى على الأرض – غداء نأكله مجتمعين .

فقاطعته قائلة : ولكن هذا ما يكفي !

فقال لها : نعم هذا ما يشبعنا لكن مثلنا ما يدوِّر الشبعة يدوِّر النقذة من الموت من الجوع .

ثم أحضرت زوجته الإناء وهو إناء معدني عندهم ووضعت فيه التمر فأسرع الأطفال يريدون الأكل منه فردهم قائلاً : أمكم تقسمه عليكم !

وقد صارت زوجته تعطي كل واحد من أفراد الأسرة تمرتين وتأكل مثلهم تمرتين تمرتين حتى نفد ما في الإناء ولم ينفد جوعهم !!!

الغداء والعشاء :

لقد شعر (لاقط بن باتع) أنه قد حصل على غداء لأسرته لفترة ولكن كيف الحصول على العشاء ؟

فقد اعتادوا على أن يكون العشاء مطبوخاً أي مما يؤكل مطبوخا ، كان أحد أهل الخير في البلدة قد علم بحاله وأنه ليس عنده شيء من العيش عشاءً لأولاده فأرسل إليه على طريق الإحسان والصدقة بعض كيس من قمح مخلوط بشعير فصاروا يطبخون منه كل يوم ما يسد جوعهم وإن لم يشبعهم ويجعلون إدامه من زبد البقرة .

وهذا كافٍ بحيث إنهم صاروا يحمدون الله تعالى على وجوده لديهم ويدعون لذلك المحسن بالخير ، بل كانوا يدعون لوالديه ، لأن المحسن الذي أعطاهم ذلك الحب غير الجيد الذي هو مع ذلك مخلوط بشعير أخبرهم أنه من غلة أرض كان يملكها والده فأوصى قبل موته أن ابنه يتصدق بجزء مما يأتيهم على الفقراء ، إذا كان فائضاً عن حاجتهم .

الدُّخن ورفيق العجل :

الدُّخن حبوب دقيقة جداً لا يأكلها إلاَّ المحتاجون والفقراء ، لأن أكلها غير لذيذ ، ولها عاقبة غير محمودة في الجسم ، وبخاصة ذلك المسمى منها بالمليساء لأنه يورث الحصر ، وأحياناً لا يهضم بسهولة ، ولكنهم كانوا في حالة يبحثون فيها عما لا يهضم لا ما يهضم ، لأنه إذا انهضم الطعام بسهولة من البطن ، احتاج آكله إلى أكل طعام آخر منه أو من غيره لا يستطيعون الحصول عليه .

عندما اعترضت زوجة (لاقط) على زوجها في زرعه الدُّخن الذي قال إنهم سوف يأكلون منه قال لها : يا (خزنه) – وهذا هو اسمها – : " الدُّخن رفيق العجل " يقولون : إن اثنين ما كان عندهم طعام فأراد أحدهما الذهاب وشراء حمل بعير من الحبوب يعني من القمح والشعير من العراق وطلب من صاحبه أن يرافقه إلى هناك

لأنه ليس مثله عنده طعام فقال صاحبه : أنا أبذر دخن في ا ليوم الذي تسافر فيه وإذا رجعت من سفرك للعراق لقيتني آكل من حب الدُّخن ، وذلك أن الدخن لا يحتاج إلاَّ إلى (٤٠) يوماً حتى يمكن قطف سنبله وأكلها !

قال : وكان ذلك بالفعل إذ عندما عاد الذي ذهب إلى العراق إلى بلده بعد (٤٠) يوماً وجد صاحبه يأكل من الدُّخن الذي بذره في اليوم الذي سافر فيه صاحبه إلى العراق .

وقال لزوجته : اسمعي يا أم عبد الرحمن ، أنت تقولين : إن الدُّخن ما هو زين على البطن وأنا أقول إن شاء الله إذا استغنينا عنه تركناه ، الله يغنينا من فضله ، أما في الوقت الحاضر فإنه أحسن من الجوع !

الربيع :

هطلت الأمطار بغزارة في فصل الشتاء ونما العشب في الصحراء وفي وقت الربيع عندما كبر العشب خرجوا مثل غيرهم من الفلاحين وأصحاب المواشي يحشون الحشيش يجمعونه ثم ينقلونه على رؤوسهم أو على ما كان عندهم من ماشية ، ولم يكن عند (لاقط) ماشية تصلح لحمل هذه الأشياء إلاَّ الناقتين اللتين يسنى عليهما لذلك اشترى إلى أجل من أحد الأشخاص الذي لا يعرفون كيفية التعامل مع شخص قد رُهِنَ كل ما لديه حتى حرثه ونسله على حد قول التاجر

فاشترى (لاقط) حماراً رديئاً غير فاره وهو الذي لا يسير سيراً معتاداً إلاَّ إذا ألحَّ عليه صاحبه بالضرب والانتهار ، ولكن (لاقطاً) وأمثاله يريدون حماراً أي حمار يعفيهم من الحمل على رؤوسهم ولو كان حماراً رديئاً .

وقد شعر (لاقط) بفائدة هذا الحمار الذي يفيدهم ولا يخسرون عليه شيئاً لأنه يأكل من عشب البرية ، غير أنه فكر أنه إذا يبس العشب ثم صار هشيماً تذروه الرياح لم يجد الحمار ما يأكله إلاَّ شيئاً من أغصان الشجر البري إذا وجد ، وأنه سوف يشارك بقرتهم الحبيبة التي تنتج لهم اللبن والزبد علفها غير أن ذلك شيء آجل – كما يقول – وقال أيضاً لأهله : إننا نستفيد من هذا الحمار سماداً مما يخلفه في مربطه أو مكان احتجازه من روث وبول وهم يحتاجون ذلك من أجل أن يسمدوا به أرض البطيخ والخضرات التي سوف يزرعونها حتى يأكلوا منها ما يأكلون ويبيعون ما يبيعون على ضآلة ثمنه .

وقالت أخته معلقة أو مصححة لكلام أخيها : والبقرة – يا خوي – نستفيد منها أيضاً للسماد ، فقاطعها بسرعة قائلاً : البقرة ما هي مثل الحمار – البقرة اخثاؤها نستفيد منها وقوداً للعشاء .

المجلس العام للقهوة :

لقد ذكر العشاء لأنهم لم يكونوا يوقدون ناراً على مدى الساعات الأربع والعشرين على شيء إلاَّ العشاء ، أما الغداء فإنه التمر وأما القهوة فإنه لا يعرفها لأنه لا توجد لديه نقود يشتري بها قهوة ولكن الوجيه الوحيد في القرية كان رجلاً يحب الظهور فكان يصنع القهوة بين الفينة والأخرى ويدعو أهل القرية الزراعية الصغيرة إلى بيته لشرب القهوة ما عدا يوم الجمعة فإنه كان من اللازم عنده أن يصنع لهم القهوة ، ويأتون إلى بيته بعد الصلاة فيشربون القهوة عندهم مجتمعين ، وذلك مجلس مفيد لأنهم يتبادلون فيه الأخبار – بل الإشاعات – لأن الأخبار الموثقة عن المدينة ، بل عن الحياة وما يتعلق بها هي شحيحة ومع ذلك تصل إليهم محرفة ، وكانوا يفعلون ذلك بحرية إذا لم يكن (مطوع) القرية معهم في المجلس .

لأنه كان من بين الذين يحضرون هذا المجلس (مطوع) المسجد في القرية أي إمامه وهو رجل سليم القلب يخيل إليه أنه إذا شغل المجلس الذي هو فيه ومنه هذا المجلس بتلاوة القرآن وقراءة الأحاديث النبوية أو ا لموعظة من عنده ،

على تعتعة فيه وعدم فصاحته فإن ذلك يرفع منزلته عند أهل القرية لأنه – في اعتقاده – يوضح لهم أنه متميز عنهم بشيء ليس عندهم ولا يحسنون مثله . ولو كان يسمع كلامهم في غيابه لما فعل ذلك لأنهم كانوا يتضجرون من كثرة وعظه الذي لا يدخل القلب – على حد قولهم – وبخاصة أنه يردده كثيراً لضآلة ما عنده منه .

واسم المطوع (حمد بن نايم السكات) كان أحد أهل القرية من الذين لا يصبرون على فعل (المطوع) هذا ولديه من الجرأة ما ليس لدى الكثيرين فأراد أن يجعل المطوع يختصر موعظته المكررة وأن يتيح الفرصة للآخرين لكي يتكلموا في أمور دنياهم واسمه (علي المبصر) وقد ندب (علي المبصر) نفسه لهذا الغرض مدفوعاً بتشجيع طائفة من أهل القرية الذين يرون مثل رأيه في المطوع فصار أول ما يبدأ المطوع بالموعظة يقاطعه بسؤال ظاهره الاسترشاد ، وباطنه التعجيز ، وأحياناً يكون مغلفاً بالنكتة .

من ذلك أن المطوع عندما قرأ الآية الكريمة " ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا " قال للمطوع : يا المطوع

أحسن الله عملك مريم بنت عمران ، وش اسم أبوها ؟ فتحير المطوع وفتح فمه كما لو كان ينتظر أن يأتيه الإلهام من جهته ، وقال : إن الله لا يستحي من الحق أنا ما أعرف اسم أبيها .

وهنا ضج المجلس بالضحك لأن الآية الكريمة ذكرت ذلك صريحاً ولكن الإمام غفل عنه ، لأنه كان فيما يبدو يحفظ الآية دون أن يتفهم معناها .

كان إمام المسجد لا يلبس سراويل مثله مثل أهل القرية كلهم والسبب في ذلك هو توفير ثمنها أو لنقل إنه عدم القدرة على دفع ثمنها إضافة إلى أن ذلك صار عادة لهم ، ولكنه كان يقصر ثوبه تقصيراً شديداً كما يفعل المتدينون ومن يحبون أن يقال عنهم : إنهم متدينون ، ولكن بعض الذين خالطت ديانتهم سذاجة يظنون أنه كلما كان الثوب أقصر كان ذلك أدعى لأن ينعت لابسه بأنه متدين أكثر .

وكان الإمام حمد مع قصر ثوبه وعدم لبسه السراويل يحتاج إلى أن يراعي مجلسه الذي هو على الأرض لعدم وجود الكراسي عندهم ، وحتى الأغنياء منهم والأمراء كانوا يجلسون على الأرض ، ولا يعرفون الكراسي ، وذلك بان يلاحظ

أن يرخي كثيراً من ثوبه القصير حتى يصل الأرض أو يقترب من ذلك من أجل إلاَّ يظهر شيء من عورته من تحت ثوبه القصير .

ولكنه رغم حرصه على ستر عورته ، وملاحظته ذلك كان يغفل في بعض الأحيان فيبدو لمن يتتبعه بأن يصغي رأسه إلى الأرض لكي ينظر إلى ما تحت ثوبه الذي لم يصل إلى الأرض وهو جالس .

فكان (علي المبصر) يفعل ذلك ، وكان إذا رأى شيئاً مما يجب أن يخفيه الإمام قال عبارة تقال في مثل هذه المواطن : (صك الدكان) ومعناها : أغلق الدكان وهذه كناية عن إضفاء الثوب وستر العورة ، فكان (علي) يتعمد إذا ما رأى الإمام أطال في كلامه الثقيل عليه وعلى أكثر من في المجلس قال : (يالمطوع صك الدكان) فيضحك الحاضرون ويخجل الإمام ويقطع كلامه غاضباً أو يخفف منه .

ومرة أراد (علي المبصر) أن يبين للقوم ، بل وللإمام نفسه غباءه وأنه لا يُحسن الأحاجي والألغاز الظاهرة التي يعرف حلها أكثر الناس وهي قوله : يالمطوع ، أحسن الله عملك ، سمعت أمس واحداً يقول لآخر : (أنشدك يا تها عن زوجة تزوجتها ، هي أمي وأنا ولدتها) .

وهذه حكاية معروفة لديهم تردد في المجالس

ولكن الإمام لم يسمع بها ولا يعرف فحوى الكلام الوارد فيها لذلك قال لعلي المبصر : أنت – ياعلي – علومك كلها ما هي جيدة حتى إنك الآن تجي لنا بكذب كيف تكون أمه وهو الذي ولدها والعادة أن الأم هي التي تلد الولد ولا يلد الولد أمه ؟!

وقد احتد (علي المبصر) عندما سمع كلام الإمام الذي يتضمن تكذيبه ، فقال : يا جماعة الخير ، أنا أبين لكم المقصود من الكلام حتى تعرفوا هو أنا قلت (كذب أو صدق) ، ثم قص عليهم قصتها قائلاً : كان رجل اسمه (تها) فيه تغفيل وله ابن نبيه ، بل غاية في النباهة فقال لوالده يحاجيه : (أنشدك يا تها) . أي أسألك يا (تها) يعني والنده ، عن زوجة تزوجتها : أي تزوجها والده (هي أمي) لأنها زوجة أبيه فهي أمه التي ولدته ولكنه قال : (هي أمي وأنا ولدتها) أي هي أمي وأنا ولدِ تها ، أي أنا ابنك يا والدي (تها) !!!

ولما سمع الحاضرون ذلك انقسموا إلى فريقين : فريق شكر (علياً المبصر) على حفظ هذه الحكاية التي تتضمن لغزاً جيداً ونادرة ، وفريق كان يعرفها أو سمع بها من قبل وإن لم يكن يذكرها كاملة الآن شكر علياً لأنه قال الحقيقة وفسرها ، لذلك لم يكن

كلامه كاذباً ، وأما الفريق الخاسر في هذا المجلس عند سماع ما حدث فإنه كان الإمام .

ومرة وعظ إمام المسجد القوم فأطال وأكثر من الترغيب في الإيثار مستشهداً بقوله تعالى : " ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة " فكان مما قاله لهم :

إنه يجب عليكم يا أخواني أن تتذكروا الجائعين من المسلمين أنتم تشبعون تمر في الغداء وتشبعون من العيش لمطبوخ في العشاء ، فقاطعه أحدهم قائلاً :

يالمطوع أحسن الله إليك ، (حنا) ما نشبع من التمر في الغداء ، والله أنه يخلص التمر قبل ما نشبع فتلجلج الإمام فقال له الرجل : قل إننا نأكل تمراً في الغداء لأن هذا صحيح ، ولكن لا تقول : إننا نشبع .

همس أحد الموجودين في أذن جليسه بما لم يسمعه المطوع وهو قوله إن المطوع يشبع من التمر في الغداء ويظن أن الناس كلهم يشبعون من التمر .

استأنف المطوع كلامه قائلاً : أيا إخواني أنتم تأكلون التمر في الغداء ومن العيش في العشاء ، وبعض الناس ما يلقون غداء ولا عشاء إن وجد الواحد منهم غداء لم يجد عشاء وبات طاوياً من الجوع وإن وجد عشاء لم يجد غداء وبقي لا يكاد يقوى على العمل من الجوع ، فأنتم إن شاء الله تحتسبون ويعطي الواحد غداءه أو

عشاءه لو مرة في الأسبوع للمحتاجين الذين تلك الوجبة فهذا فيه فضل عظيم لأنه من الإيثار بالطعام ولا يضر الواحد منكم إذا عاش على وجبة واحدة يوماً أو يومين في الأسبوع .

كان أحد الحاضرين واسمه (صالح) متديناً يتأثر بالموعظة ، وقد أثرت فيه موعظة المطوع ولذلك عندما حان وقت عشائه قبل أذان المغرب من اليوم التالي أحضرت زوجته عشاءهما فهي تأكل معه لأنه ليس في بيته شخص كبير تحتشم منه كالوالد والوالدة ولا حتى أولاد كبار وإلاَّ فإنه إذا كان يوجد أحد من هؤلاء وأمثالهم فإن العرف عندهم ألاَّ تأكل المرأة مع زوجها .

عندما أحضرت زوجة (صالح) عشاءها أسرع (صالح) يأخذه من أمامها ، وكانت على غاية من الجوع والتشوق للعشاء ، ولكنها فوجئت بهذا الأمر غير المعتاد ، إذ خرج صالح بعشائها دون أن يخبرها بشيء ، وبعد فترة وقد أذن لصلاة المغرب عاد إلى البيت وأسرع يتوضأ ليصلي مع جماعة المسجد وهي تقول له : أين ذهبت ؟ أين عشاؤنا ؟ ولم يرد عليها تساؤلها لأنه كان مشغولاً بالذهاب للصلاة ، ولأن إيضاح

ذلك يحتاج إلى شرح حتى تقتنع به .

وعندما عاد من الصلاة وجد امرأته لا تزال في ذهولها وحيرتها لما حصل ، فقال لها : يا مزنة – أنا سمعت المطوع أمس يعظ الناس ويقول كلاماً صحيحاً وهو أن الشخص المسلم لابد أن يؤثر غيره بعشائه أو غدائه مرة أو مرتين في الأسبوع لكي يدخل في الفضل الذي ذكر الله تعالى لمن " يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون " .

وقد أعطيت عشاءنا الليلة لأحد البيوت الجائعة وسوف يكون لنا أجر عظيم لأننا نوينا الخير وفعلناه .

فقالت امرأته : ولكن العشاء لي أنا واياك وأنا جائعة ولا عندنا شيء غيره ، كله ، حتى التمر أنت مغلق عليه المخزن ما أقدر آكل منه ولا تمرتين ، فقال : أعرف هذا ، ولكن نحن محتسبون ، فقاطعته زوجته قائلة :

أنت يا أبو محمد محتسب ، لكن أنا ما احتسبت ، أبي عشاي أنا جوعانة من الصبح !

فقال : أنا عطيت العشاء ، وانتهى الأمر ، فقالت له : إذاً أعطني من التمر الذي أنت مغلق عليه بالمفتاح.

فقال : لا ، التمر للغداء ، هو انتِ ما سمعتِ المثل الذي يقول : (الويل الويل ، لأكّال التمر في الليل) ، وهنا تضايقت المرأة وسكتت مرغمة ، ثم فارقت مجلسه .

وفي الصباح أسرعت مزنة إلى زوجة المطوع تشكوه إليها وتقول : أنت شفتِ رجلك والذي سواه ؟ ، خلاً أبو محمد يتصدق بعشانا وبتنا البارحة بدون عشاء، وأخاف أن المطوع يسوي بك مثل هذا .

فقالت لها زوجة المطوع : لا ، يا أم محمد ، أنا أخلي لك المطوع ما يعود لهذا الكلام .

وفي مساء ذلك اليوم عاد المطوع إلى بيته قبل صلاة المغرب وكان جائعاً وهو مشهور بأنه أكول ، وطلب من زوجته أن تقدم عشاءه بسرعة ، حتى يستطيع أن ينتهي منه قبل أذان المغرب .

فقالت له زوجته : لقد تصدقت به !

دهش المطوع لذلك ، فقال لها : هاتي عشاي وخلي عنك الكذب !

فقالت له : أنا بلغني من زوجات بعض الرجال الذين حضروا المجلس بعد صلاة الجمعة أنك وعظتهم ورغبتهم في فضل الذي يتصدق بعشائه أو بغدائه على المحتاجين مرةً أو مرتين في الأسبوع وتصدقت بعشائك .

وهنا تجلت الصورة واضحة في ذهنه وأنه سوف يبيت طاويا ، فقال لها وهو يلتمس عصا عنده غليظة يريد أن يضرب امرأته بها وهو يدمدم بقوله :

يا مرة أنت ما تفهمين ، الموعظة ما هي لي ، الموعظة للناس ، أنا ما قلت لك : تصدقي بعشائي ، ولا إعملي بموعظتي !

وقبل أن يهوي عليها بعصاه الغليظة بادرته تقول له وهي ترفع صوتها وتبتعد عن أن تصلها العصا :

الله يهدينا وإياك ، لا تستعجل عشاك موجود لكن أنا حبيت إني أشوف رأيك وأسرعت تقرب له عشاءه !!!

والغلطة الأخرى التي هي في الحقيقة من عدة غلطات لهذا المطوع أنه كان يكثر من حث الرجال على التزوج بامرأة أخرى مع الزوجة الأولى ويقول في تبرير ذلك : إن الرسول ﷺ يقول : " تزوجوا الولود الودود فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة " .

ويقول المطوع : " الزواج باثنتين وثلاث إلى أربع فيه فوائد كثيرة عظيمة منها كثرة النسل والأولاد الذين يدعون لوالدهم بعد موته وقد يبرونه في حياته ، ومنها أنه يعف امرأة مسلمة التي قد بقيت بدون زواج ، ومنها : . .

وهنا قاطعه أحدهم واسمه (دحيم) فقال له : يا المطوع أنا متزوج واحدة ودودة وولودة فهي تودني وأودها كثيراً وهي ولود حتى إنني الآن عندي ثمانية أطفال ، كلما قمت وقعدت أقول : يا الله إنك تصلحهم ولا تزيدهم ، والله إنهم ما يخلون في ماعون الطعام لي ولأمهم شيئاً ينهبون الطعام من بين أيدينا والمشكل كسوتهم ، الناس يفرحون إذا أقبل العيد وأنا أحزن لأنهم كلهم يطلبون كسوة وأنا ما عندي شيء ، وإذا تعذرت عن الكسوة قالت أم العيال : إنت تبي عيالنا تنكسر خواطرهم بالعيد ، كيف يا المطوع أقدر أتزوج امرأة أخرى ودود ولود تجيب لي ثمانية عيال آخرين ؟

فقال المطوع : رزقهم على الله مثل رزق العيال الأولين .

وقد رد عليه أحد الحاضرين ممن لم يرزقوا بأولاد قائلاً : يا فلان ، على هونك كلام المطوع صحيح ، المثل يقول : (من خلقه رزقه) فالله الذي خلق الأولاد يرزقهم .

وقال آخر معروف أنه زير نساء : يا فلان ، انت تبي الرجل ما يصير له إلاَّ حرمة واحدة والله سبحانه وتعالى معطيه (أربع) ؟ .

وعلق المطوع على ذلك قال : الله سبحانه وتعالى أعلم بالصالح لعباده وهو الذي أجاز للرجل أن يتزوج أربعاً من النساء .

وقد كرر المطوع مثل هذه الموعظة أكثر من مرة حتى انتشر كلامه في القرية وبلغ النساء خاصة على نطاق واسع ، فاجتمعن في بيت إحداهن مع ضيق الوقت بالنسبة لهن لأنهن كلهن يعملن في أعمال الفلاحة ولكن الأمر مهم لهن ، وتشاورن في كلام المطوع الذي يحرض الرجال على الزواج بأكثر من زوجة واحدة ، بل بأكثر من زوجتين أيضاً .

وقالت إحداهن : يا حريم ، انتن تعرفن أن رجالنا فلاحين وشغلهم كثير وشاق والواحد منهم إذا جانا ينام بالليل لقانا قفاه من التعب والشغل وهو ما معه إلاَّ مرة واحدة كيف إذا صار عنده زوجة ثانية ، والله ما يلقي زوجته أي بال .

وقالت أخرى : حتى لو رجالنا ما يجون تعبانين ما يمكن إننا نقبل أن أحد يشاركنا برجالنا ! فتعالت أصواتهن باستحسان ذلك وأنهن لا يقبلن أن تشارك إحداهن في زوجها ، ولكن واحدة منهن قالت : يا حريم ، انتن نسيتن أن الرجال يتزوجون بمرة ثانية ولا يشاورون حريمهم ، ولو شاوروهن ما طاعن ؟

فقالت عاقلة منهن : أنتن الله يهدينا وياكن لا تضيّعن المسألة بشيء ما هو بمهم ، انتن لازم تجادلن المطوع تروحن له وتكلمنه .

فقالت أخرى حازمة : إذا كلمتن المطوع أولاً يخبر رجالكن ولا يمثل للكلام ، لكن الأفضل إننا نجبره !

فأسرعت اثنتان تقولان : نجبره كيف ؟

فقالت الحازمة واسمها (قوت) : إذا صار عقب صلاة العشاء وطلع من المسجد يا قف له بدربه ثلاث منكن كل واحدة معها حصاة ، ويقولن له بصوت ما يعرفه : يا المطيويع ليش انت تفسد رجالنا تطلب منهم يتزوجون علينا والله إن ما كميت عن كلامك إننا نكسر راسك بالحصا ولا أحد يعرفنا في الليل .

وبالفعل ، إذ ما أن قضيت صلاة العشاء وخرج المطوع إلى بيته وكان الظلام مستحكماً حتى فوجئ بنساء في الظلام كأنما هن قطع منه تسير مما لم يألف له نظيراً من قبل ، وقد قلن له ذلك في الظلام ، ثم رمته كل واحدة منهن بما معها من الحجارة وقلن له : انتبه يا المطيويع - والله إن قربت لنا إننا نصيح ونقول إنه حاول مسكنا بالقوة ونفضحك !

كان المطوع قد أصابه حجران فآلماه ، ولكن ذلك لم يسبب له جرحاً كما أن الكلام حول صياح النساء وزعمهن أنه حاول الإمساك بهن أمر فظيع بالنسبة إليه هو أعظم عنده من قذفه بالحجارة .

وفي ضحى اليوم التالي اجتمعت النسوة وقصصن على صويحباتهن ما جرى البارحة قائلات : إنه لن يفعل ذلك مرة أخرى ولكن (قوت) قالت : هذا ما يكفي منه ، لازم نخلينه يتكلم بالجماعة كلاماً ينقض كلامه الأول !

واتفقن على أن يفعلن مثل البارحة ولكن على أن يهددنه أنه إذا لم يتكلم بعكس كلامه السابق فإنهن سيفضحنه ، ثم يرمينه بحجارة أكبر من الأولى .

وهكذا كان .

وهنا داخل المطوع الخوف لا سيما أن أحد الأحجار أصابه في رجله فآلمته .

المطوع يعدل عن رأيه :

بعد صلاة الجمعة التالية اجتمع أهل القرية في بيت ذلك الوجيه منهم وأخذ المطوع على عادته يتكلم فقال : يا إخوتي يقول الرسول ﷺ : (الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة) ولذلك يجب

على الذي عنده امرأة مطيعة له ، قائمة بأمره لاسيما إذا كانت محافظة على أداء فرائض دينها فإنه لا يجوز له أن يكدرها ، بل إنه يجب عليه أن يكافأها على ذلك ومن أعظم مكافأتها أن يشعرها بإخلاصه وأن يردد معها ما ورد في الحديث أن الرجل إذا كان صالحاً وزوجته صالحة فإنهما يصبحان زوجين في الجنة .

ثم رفع رأسه قائلاً : الجنة التي ليس فيها موت ولا فراق ولا غم ولا حزن لاشك أن في هذا نوعاً من مكافأة المرأة الصالحة . ثم إن المرأة الصالحة تفني حياتها في خدمتك وخدمة أولادك حتى إنها ترضع أولادك مجاناً مع أن الفقهاء ذكروا أن المرأة إذا امتنعت عن إرضاع طفلها إلاَّ بأجرة فإن على والد طفلها أن يدفع لها الأجرة .

وقال ورفع صوته كأنما يسمع النساء مع أنه لا توجد بقربه نساء يمكن أن يسمعن صوته : والآن نساؤنا جزاهن الله خيراً يرضعن أولادنا مجاناً .

وقال : والأهم من ذلك أن العلماء ذكروا أن المرأة إذا طلبت من زوجها أن يحضر لها خادمة فإنه يلزمها ذلك بالمعروف أي أن تكون خدمتها بالمعروف !

وقد فغر أفواه الرجال ، ولم يصدقوا آذانهم فيما سمعوه من (المطوع) الذي كان في السابق يتكلم بنقيض ذلك ويكرره على مسامعهم .

وقد أراد أكثر من واحد منهم أن يقاطعه بسؤال أو استفسار ولكنه كان يندفع في الكلام ولا يترك لأحد فرصة لذلك كأنما يريد أن يلقي إليهم بشيء يحفظه يخاف أن ينساه .

فقال : وأهم ذلك إذا جاء الليل وصار الرجل مع زوجته على الفراش فإنها لا تطلب أجراً على ذلك ، قد يقول قائل منكم : إنها أخذت أجرها من السابق وهو المهر ، ولكن ذلك كان لتجهيز المرأة ، كما أن ذلك المهر قد استنفذته في الأعمال الشاقة التي قامت بها المرأة وتقوم بها وبأمثالها طيلة السنين .

قال : وشيء آخر وهو أنه قد تكون لأحدكم أم كبيرة أو والد هرم يؤذي زوجته والزوجة المسكينة صابرة تخدمه وتصنع له طعامه وتصبر على الكلمات الجارحة التي قد يتكلم بها عليها ، فلا تواخذه من أجل كبر سنه .

وهنا جعل المطوع يهدئ من كلماته كأنما كان ما لديه من الكلام في هذا الموضوع قارب النفاد فأسرع أحدهم إليه يقول : يا المطوع الله يهدينا وإياك ، هذا خلاف ما كنت تقوله لنا من قبل عن (الحريم) وعن استحباب الزواج بأكثر من زوجة !

فأسرع آخر يخرج الكلام عن وجهه وهو يقول : الذي راح ما يهمنا المهم الآن المطوع يريد أن يفسد علينا زوجاتنا بحجج واهية مثلاً ما يحدث في الفراش ليس خاصاً بالزوج بل (المصلحة فيه مشتركة) !

وقال المطوع : والعجيب الذي لا يجوز في العقل أن الرجل يبحث عن زوجة أخرى وهو ما يدري عنها ربما أن زوجته أجمل منها ، وأصلح ، بل وأصدق لزوجها وأكثر محبة له من هذه الزوجة الجديدة .

وقال : كذلك المرأة تعمل في بيت زوجها كل الوقت هو نظير إطعامها هي وأولادها وكسوتها فانبرى المطوع يقول له : على هونك - يا فلان - إذا كان الإطعام كافياً في مقابل العمل فابحث لك عن عامل يعمل معك طول الوقت من طلوع الفجر حتى بعد العشاء نظير أن تطعمه وتكسوه ثوباً في السنة مرة وأحياناً ما يحصل حتى الثوب مع أن العامل لا يصلح لما تصلح له المرأة .

فضج المجلس بالضحك ، إلاَّ أن الجالسين سرعان ما زايلهم ذلك ، وقالوا : الحقيقة الذي قال فلان وهو (علي المبصر) هو الصحيح ، المطوع يريد أن يفسد زوجاتنا علينا .

فقال لهم : أنا ما أقصد إلاَّ بيان الحق .

فقاطعه (علي المبصر) قائلا : أين كنت عن الحق في الأيام الماضية ؟

فسكت القوم عندما تدخل صاحب المنزل وأسكت الجميع .

وفي المساء قال أحد الحاضرين لزوجته وكانت إحدى النساء اللاتي تآمرن على المطوع : يا منيرة ، والله لو أنتي سمعتي كلاماً للمطوع في المجلس اليوم عن الزوجة المطيعة لزوجها إنك تدعين له !

فأظهرت التلهف لسماع ذلك وقالت : إيش هو ؟

فقال أنا ما يمكنني إني أقوله كله لأني ما حفظته لكنه يوصي الرجال بالحريم ،

فقالت : جزاه الله خيراً ، وعسى هذا يفيد فيكم – يا الرجال – .

لاقط يعمل بلا راحة :

فيما عدا هذه الجلسة الأسبوعية في بيت الوجيه الذي يقدم القهوة بعد صلاة الجمعة فإن (لاقطاً) لا يعرف الراحة أبداً ، بل هو يواصل العمل ، فيبدأ به عند انبلاج الفجر وأحياناً قبل ذلك بأن يسني على الإبل لإخراج الماء من البئر وجمعه في الجابية من أجل أن يسقي به نخله وزرعه وتساعده في ذلك امرأته التي تقوم مبكرة من نومها فتصلي الفجر ثم تساعده .

ولم يكن (لاقط) يطمع في فنجان من القهوة بعد التعب المبكر ، لأنه لا يستطيع أن يحصل على نقود يشتري بها البن (حب القهوة) .

ولقد نعم يوماً بمقدار قليل من البن أهداه له أحد أقاربه في المدينة ذاكراً أن ابناً له يعمل في الكويت كان أرسل له شيئاً من ذلك هدية فأعطى الرجل (لاقطاً) قدراً قليلاً منها بمثابة الهبة .

أما الصدقة فإنها تدفع من التمر والحبوب المأكولة - التي أنفسها القمح وأدناها الدخن .

وعندما ترتفع الشمس ويستيقظ بقية أهل البيت ينصرف هو للعمل في النخل أو الزرع والبرسيم وتنصرف زوجته لحصاد البرسيم أو العلف للبقرة .

وفي العاشرة ضحى على وجه التقريب يجتمعون للغداء الذي هو التمر وحده إلاَّ إذا تيسر أن يكون معه شيء من اللبن المشوب بالماء الكثير لأن لبن بقرتهم بدأ بالتقلص بعد أن بعد عهدها بالولادة ولذلك عرضوها للثور على أمل أن تلد لهم عجلة أو ثوراً فينتفعون به وينتفعون باللبن الذي يأتي كثيراً مع ولادتها .

وما يزال يعمل هو وأسرته طول اليوم حتى تقارب الشمس أن تغرب فتجتمع الأسرة على عشائها الذي لابد من أن يكون مطبوخاً

وهو من أي نوع من الحبوب يتيسر لهم الحصول عليها وليس فيه من الإدام إلاَّ بعض السمن من بقرتهم .

وبعد صلاة العشاء مباشرة تسكن فلاحتهم سكون الأموات ما عدا نهقة الحمار وأحياناً قليلة تثغو البقرة فتشاركه التصويت .

الثمرة الجيدة :

سارت الحياة العسيرة بلاقط وأسرته بصعوبة وبطء . إذ كانوا ينتظرون سرعة إرطاب النخل ثم إثماره من أجل أن يشبعوا برؤسهم ، ثم بشيء يعنى به (لاقط) أكثر من غيره من بقية الأسرة وهو - رجاؤه بأن تكون ثمرة النخل من التمر جيدة سالمة حتى يستطيع أن يوفي دينه وأن يجد مقداراً إضافياً من التمر يأكله وأولاده في وجبة الغداء ، طيلة السنة القادمة .

ولم يخب ظنهم فقد سلمت الثمرة من أهم ما يهددها وهو أن تصاب إحدى الناقتين بالجرب أو بأي مرض آخر يجعلها غير قادرة على إخراج الماء من البئر التي يقوم على مائها النخل والزرع ، كما عوفوا من الجراد والدبى الذي يأكل الثمار ويحرم أهلها منها ، فرغم كون السنة سنة خصب وعشب وفير يجعلها حسب العادة

مناسبة لتكاثر الجراد فإن الجراد لم يوجد في تلك السنة إلاَّ أشياء محدودة منه جاءت إليهم في آخر الصيف لكي تغرس أذنابها في الأرض وتدفن أولادها ، وهي إذا كانت كذلك كان ضررها أقل ، لأنها لا تكون من الكثرة كما يكون عليه الجراد الذي يأتي إليهم في الخريف كثيراً ، حتى إنه إذا طار غطى عين الشمس فصار الناس يحسون كما لو كانوا تحت سماء غائمة وذلك ما يسمونه بالجراد البحري وهو الجراد الأحمر .

بل إنهم يسرون إذا ما جاءهم الجراد في آخر الوقت إذ يكون التمر قد كبر حتى صعب على الجراد أكله إضافة إلى قلة أعداده نسبياً ولشيء مهم آخر وهو أنهم يصطادونه ويطبخونه ويظلون يأكلون منه مدة طويلة وهم بذلك يستعيضون به عن أكل اللحم الذي لا يصلون إليه إلاَّ بتعب أو في عيد الأضحى حيث توجد وصايا وأوقاف قليلة جعل أهلها فيها " أضحية" يأكل منها ورثتهم ويتصدقون منها على الفقراء الذين لا يستطيعون شراء أضاحٍ لهم .

عندما بدأ الإرطاب في بعض النخلات التي من عادتها أن تكون أسرع إرطاباً من غيرها صاروا يأكلون منه سراً وعلانية فرغم كون (لاقط) ينهى أفراد الأسرة عن أن يأكلوا منها إلاَّ بمقدار من أجل تدبيرها فإنهم كانوا يصعدون إليها ويأكلون .

وعندما اكتمل إثمار النخل وحان جداده أي قطعه وخزنه حضر (ملحوق بن تلاس البصاط) وأحضر معه الزبلان الكبيرة - جمع زبيل - وصار يقطع من أعذاق النخل ويقطع ويخرص كل ما يقطعه بمعنى يحزره بالوزن وإن لم يزنه إذ قال إن ملأ هذا الزبيل مثلاً يساوي أربعين وزنة حتى استوفى جميع ما ذكر أنه في ذمة (لاقط) له ، ولم يبق في النخل إلاَّ بقايا يشك (لاقط) في أنها تكفيه وأسرته طيلة العام القادم قبل نضج الثمرة التالية .

وهذ أمر محزن ، ومع ذلك كان (لاقط) مسروراً بوفاء دينه ، إلاَّ أن الذي كان يكدره أن سعر التمر قد ارتفع عما كان عليه حتى صارت الوزنة والنصف منه بريال وقد أعطى دائنه التمر كل أربع وزنات بريال ليزيد بها غناه ، ويضيف التاجر الدائن

ذلك التمر إلى التمر الذي عنده الذي سيبيعه الوزنة والنصف بريال ويخزن بعضه ليبيعه بأغلى من ذلك إلى أجل .

وقد تعمد التاجر أن يأخذ أطايب التمر من الخضري والمكتومي .

وعندما ذهب كان (لاقط) وأهل بيته من النساء يحزرون ما تركه لهم الدائن وهل يكفيهم أم لا ؟

وقالت الزوجة : يا (لاقط) أبي أقول لك شيء ما تدري عنه !

فاشرأبت أعناق الجميع لأنهم يعرفون أنه ليس من عادتها رغم أميتها المطبقة أن تقول التوافه : لقد أخفيت عليك شيئاً فأنا أخذت من التمر الطيب شوي وأخفيته عندي لنا ما أريد أن التاجر ياخذه ، أنا ما أعرف الحساب ولا أدري عن التمر الذي له عندك لكني عرفت من حريم كثير إن التاجر يمكن أن ياخذ كل التمر ويخلي أهل الفلاح بلا شيء يكفي ولا غداهم ليوم واحد .

فرح (لاقط) بذلك ، بل استطير فرحاً عندما ذهبت به وأختيه وابنتهم إلى مكان خفي كانت وضعت فوقه بعض التبن وأرتهم إياه فشكروها وحمدوا الله تعالى ، ثم أخذت النسوة ينقين التمر وخزنّه للأشهر القادمة في برمة من الطين وهي كالقدر من الفخار

كانت موجودة في منزل الفلاحة ، لأنه ليس فيه جصة لخزن التمر لعجز الفلاح الذي كان فيه قبلهم عن بناء جصة .

وقد قالت النساء للاقط : من فضلك خلنا نشبع كل يوم من التمر ، الخير كثير ، فقال لهم : أتتم نسيتم الذي حصل لي من التعب والمشقة حتى حصلت خمسين وزنة التمر من التاجر في العام الماضي ؟

لا ، لابد من ا لتوفير ، لكن الشبعة لابد منها إن شاء الله اللي ما يشبع من التمر يشبع من الذرة ، وكان قد بذر ذرة آتت أكلها جيدة ، وخزنها من أجل أن يجعلوها عصيداً في بعض الأحيان ويأكلونه .

عجب (لاقط) وهو يرى أن مظاهر أفراد أسرته قد تغيرت بعد أن شبعوا من التمر فزادت أوزان النساء ، مما حمله على أن يكتشف سراً كن يخفينه عليه وهو أنهن كن يأكلن من التمر من حيث لا يعلم ، بل ولاحظ أن الجميع قد صار لعيونهم بريق لم يكن يراه فيها من قبل ، وصارت في خدودهم حمرة حلت محل صفرة سابقة ، فعرف أن هذا من أكل التمر حتى الشبع ، وجاء في خاطره أنهم كانوا يأكلون من التمر أكلاً إضافياً خفية عليه ، فغضب في نفسه ، ثم هداه تفكيره الذي كان كثيراً ما يغلب غضبه إلى أنه هو أيضاً

كان يأكل من النخل خفية عليهم ، فكان إذا صعد إلى النخلة الطويلة بحجة أنه يأخذ منها رطباً أكل منها حتى يكاد يمتلأ بطنه ، ومع ذلك يشارك أسرته ما يحضره من التمر لهم ، وعلل فعله ذلك بكونه يحتاج إلى التمر من أجل أن يعمل لهم عملاً كثيراً في الفلاحة ، وذلك لكون (التمر مسامير الركب) كما يقول المثل .

السنة الثانية :

لم تكن السنة الثانية كالأولى ، بل كانت أقل منها فالأمطار كانت أقل وإن كانت نزلت في أوانها ، والعشب كان أقل ولكنهم كانوا قد اعتادوا على زراعة العلف لدوابهم وأهمُّه وأظهره البرسيم وقد صارت عندهم إلى جانب البقرة عجلة وهي الصغيرة من البقر ولدتها بقرتهم وصاروا يؤملون أن يكون فيها ولو بعد سنة لبن وزبد تنفعهم وقد يبيعونها إذا احتاجوا إلى ثمنها إلاَّ أنهم لا يبيعونها إلاَّ مضطرين ، وولدت الحمارة التي عندهم جحشة وهي الحمارة الصغيرة فباعوها بعد أن تمت شهرين من العمر بخمسة عشر ريالاً فضياً دفنها (لاقط) في مكان ما لا يعرفه غيره خوفاً عليها من لصوص أو منتهبين ،

وحتى خوفاً عليها من أهل بيته إذا عرفوا أن عنده نقوداً لأنه كان أخبرهم - كذباً - أنه دفع ثمنها من دينه .

وقد حرص على دفن هذه الريالات في الأرض من أجل أن يجمع إليها ما قد يحتاج إليه في كسوة أهل بيته ، لأنه يعلم أن الثمرة الرئيسية فيه التي هي ثمرة النخل ستذهب للدائن ولن يبقى منها ما يستطيع بيعه .

وقد حدثت في هذه السنة أشياء مكدرة منها أن إحدى أختيه خطبها فلاح آخر عنده زوجة وأولاد منها ، وقد علل خطبته لها لدى (لاقط) بأنه سوف يتزوج كما تزوج غيره من الرجال بامرأة شابة وأنه قد اختارهم أصهاراً لما يعرفه ويعرفه الجميع عنهم من الصيانة والستر .

أما الرجل الخاطب فإنه لم يكن ما ذكره هو الدافع الوحيد لذلك الزواج وإنما الدافع الأعظم له هو أن امرأته كبرت وكثر العمل عليها في بيته ، ويريد امرأة ثانية شابة تقوم بالأشغال الشاقة فيه حتى الأطفال الصغار فإنها تعتني بهم ، وتعمل على تنظيفهم وتلهيتهم .

تردد (لاقط) في نفسه في الاستجابة لهذا الزواج قائلاً : إن هذا سينقص العاملين في بيته يداً واحدة مدربة صبورة ، وقد خطر بباله

أنه سوف ينقص فماً أكولاً أيضاً ، ولكنه أجاب نفسه بنفسه قائلاً : أختي (هيا) وهذا اسمها تعمل في الفلاحة عمل امرأتين ولذلك لا يمكن أن أوافق على زواجها .

إلاَّ أنه بعد أن فكر طويلاً في الموضوع قالت له نزعة الخير والدين في نفسه : إنه لا يجوز لك أن تحرم أختك من الزواج لأجل أن تعمل معكم لا من أجلها هي ، ومع ذلك أخبر أمه وشاورها في تزويج أخته من ذلك الرجل ، وقد سارعت أمه بغريزة الأمومة توافق على الزواج وتقول له : إن هذا هو رزقها ولا ينبغي أن تعترض عليه ، فقال لها : يا أمه ، الظاهر أن الرجل يبيها عنده خادمة لزوجته القديمة وأولاده فردت عليه أمه بحدة قائلة : إذا صارت خادمة عند زوجها الذي يمكن يجيها منه ذرية احسن من صيرتها تبقى خادمة في بيتك تعمل في الفلاحة وتخدمك أنت وعيالك .

وقد اقتنع بكلام والدته ووافق على تزويج أخته .

وقد وجد بالفعل أنها تقوم بنصيب كبير من العمل في الفلاحة ولكنه لم يستطع أن يقف في وجه زواجها .

والثاني : أن زوجته مرضت فتعطل بمرضها كثير من أعمال الفلاحة ، وكان اضطرابه نفسياً أعظم من غيره لأنها زوجته التي أحبها وأخلصت له وهي أم عياله الذين لا يستغنون عن خدمتها لهم ، ثم إنه فكر فيما لو أصابها مكروه ماذا يفعل ؟

لقد كان وقع هذه الفكرة فظيعاً عليه ، ولم يستطع أن يتصور كيف تطيب نفسه أن يدفنها فيما لو ماتت ، غير أن طبيعة الرجل أوحت إليه بأنه إن فقد زوجته الكبيرة فإنه يمكنه أن يتزوج بزوجة صغيرة ولكنه ضحك من نفسه رغم كون الأمر يدعو للبكاء أكثر من الضحك لأنه تصور أنه ليس لديه مهر للزوجة وإن لم يكن المهر كثيراً ، كما أنه تصور أنها ستكون في خصام دائم مع أولاده كما هي العادة بين الأولاد وامرأة أبيهم .

لذلك تعوذ بالله من الشيطان وسأل الله مخلصاً أن يعافي زوجته وألاَّ يفجعهم بها ، وقد استجاب الله دعاءه فعوفيت من مرضها الذي لازمها شهرين .

كان (لاقط) قد زرع في القيظ خضرات مما يعرفونها آنذاك وتكاد تنحصر في القرع واللوبياء والباذنجان ، ومع أن محصوله منها كان جيداً

فإن أولاده لم يشبعوا منه لأنه كان يجلبها على المدينة ويحتفظ بثمنها القليل يضمه إلى ما عنده حتى يشتري لزوجته ثوباً جديداً في العيد وللذين ليس عليهم ثياب من أولاده وأهل بيته .

أما هو فإنه لن يشتري لنفسه شيئاً ، لأن عليه (شماغاً) جديداً كان أرسله زوج أخته مع مهرها الذي اقتصر على لحاف ورداء وعلى عباءة لها وقطعة قماش أحمر رديء لها وثلاثين ريالاً نقداً .

ولم يكن أخذ من صداق أخته أي شيء لأنه أولاً رجل ورع يعرف أنه لها دون غيرها ، ولأنه - ثانياً - كان قليلاً لا يمكنه الأخذ منه ، ولذلك كان دخوله عليها أشبه بالاجتماع المعتاد على قهوة معتادة ولم يصنعوا وليمة للعرس لما ذكر .

وقد أصرت أخته على أن يشتري من مهرها ثوباً لأمها حتى ينالها شيء من زواج ابنتها التي هي أخته .

وعلى أية حال فقد مضت السنة معتادة بالنسبة إليه وإلى أسرته إلاَّ ما ذكرناه .

غير أن الذي ليس بمعتاد أن الدين الذي كان قد ركبه لمدة سنتين حلَّ في موسم جداد النخل ولم يستطع إلاَّ الوفاء به رغم ما كان

يدمدم به وبقوله جهراً عندما يأمن من أن يصل إلى دائنه الذي يسميه عمه هو قوله :

ألا يخاف الله هذا التاجر يأخذ مني التمر على ست وزنات بالريال ويبيعه بالسوق على وزنة ونصف بالريال وأنا فقير وهو غني

ثم يدعو عليه ، إلاّ أنه يستغفر الله بعد ذلك محدثاً نفسه بأنه هو الذي ذهب إليه وطلب منه أن يدينه بهذا الدين وهو الذي قبله وإن كان قبوله له كان اضطرارياً .

زواج بالإكراه :

بلغت ابنته (نفلا) الخامسة عشرة وكان دائنه أو كما كان يسميه عمه بمعنى سيده وهو ملحوق بن تلاس البصاط قد رآها عندما كانت في العاشرة ثم رآها مرة من دون أن تفطن له وهي في الثالثة عشرة فأعجبته .

لذلك استدعى (لاقطاً) إلي بيته في البلدة ، ولم يكلف نفسه حتى عناء الذهاب إليه في قريته ، وقال له : بكلام واضح لا أثر فيه للمجاملة : أنا يا لاقط - تعرف أن أم صالح - يريد إحدى زوجتيه - قد توفيت ولم يبق في البيت إلاَّ أم محمد يريد زوجته الثانية التي بقيت في ذمته .

والرجل مثلي الذي مغنيه الله يريد زيادة الخير ، وعيال أم صالح يحتاجون إلى أحد يلاحظهم ، لأن الزوجة الأخرى مشغولة بعيالها ولو كانت ما هي مشغولة ما تكون حنونة عليهم ، لأنهم عيال ضرتها .

وقلت : أريد أتزوج وأنت تعرف لله الحمد أن البيت مليان من كل خير ، صحيح إن فيه عيالي وعيال أختي (هيلة) لكن الخير كثير ، والله يا بو دحيم إني ما أغلق الباب على الجصة مخليها طول الزمان مفتوحة ، والذي يريد ياكل زيادة تمر على الغداء يقدر ياخذ منها .

صحيح إني موكل زوجتي أم محمد عليها لكن على ما يقول المثل : (الرقيبة يغفل) .

وأما الدراهم فهي كثيرة ، أنا ورثت من والدي دراهم لكني ثمرتها في الحلال !

فقال (لاقط) في نفسه وأي حلال ! لأنه يعرف أن الفلاحين يستدينون منه مضطرين ويوافقون على أن يستغلهم مضطرين أيضاً وإن كان يقول لهم إذا أرادوا أن يداينهم : أنتم أحرار ، إن أحببتم تاخذون الدين مني أو من غيري كله واحد ، وكان هذا الكلام صحيحاً ، لأن معظم التجار الذين كانوا في بلدته في وقته يتعاملون

مع الفلاحين بالطريقة نفسها ، لا يختلف بعضهم عن بعض إلاَّ بحسن التقاضي من الفلاح المدين أو سوءه .

فقال (لاقط) من دون أن يعرف أنه يقول هذا الكلام من أجل أن يخطب ابنته (نفلا) :

الحقيقة - يا عم - أن الذي تقول صحيح وأنا لو كنت في محلك تزوجت ، انت منعم الله عليك ، والدنيا للدنيا .

قال (لاقط) ذلك عن اعتقاد لأنه قال في نفسه : الحقيقة أنني لو كنت مثله كنت تزوجت .

فقال التاجر (ملحوق) : يا (لاقط) أنا شفت بنتك (نفلا) قبل سنتين وأسرعت تختبئ عني وتبعد وعرفت أنكم مربينها تربية طيبة .

قال ذلك من دون أن يعرف أنها بالفعل قد رباها أهلها تربية حسنة لكن ليس هذا هو السبب الوحيد الذي جعلها تهرب من رؤية التاجر وإنما ذلك لعدم وجاهة منظره ، بل إن العذارى أمثال (نفلا) لا يرين فيه وأمثاله إلاَّ شاعة المنظر ، لأنه مسن قارب على أن يكمل الستين من عمره وهو ضخم البطن ، صغير الأنف ، مائل الشدق ، أسمر سمرة تقرب من السواد .

وفوق ذلك هو لا يعتني بلباسه ، ولا يهتم بمنظره ، اعتماداً على ما لديه من مال .

فوجئ (لاقط) بخطبة ابنته من التاجر ، ولم يستطع أن يقول : لا ، لأن هذا التاجر قد رهن كل شيء يملكه حتى رهن حرثه ونسله ، حسبما أثبت الكاتب الذي كتب الدين .

ولذلك صارت حياته ، بل ومستقبله رهناً بإرادة هذا التاجر .

إن (لاقطاً) يعلم أن كثيراً من الفلاحين المدينين يفرحون بأن يتزوج (عمهم) بمعنى دائنهم من قريبة للفلاح ، سواء أكانت ابنة له أو أختاً ، لأن ذلك يجعل يعاملهم بأقل قسوة ، وقد يجود لهم إذا لم يكن بخيلاً بشيء من القهوة أو شيء من اللحم بعد شهر أو شهرين .

ولكن (لاقطاً) يحب ابنته (نفلا) ويقدرها تقديراً عظيماً ، ولا يريد لها أن تقترن بهذا الرجل الذي سيقضي زواجها منه على سعادتها ، فضلاً عن مستقبلها .

لكنه - كما قلنا - لا يستطيع أن يقول : لا ، لدائنه ، لذلك وجد حيلة تخلص بها منه مؤقتاً وهي أنه قال له : يا عم (ملحوق) أنت تعرف

إن ما عندي شيء يخالف رغبتك لكن البنت وأمها يمكن لهم رأي في الموضوع ، ولازم أنا أشاورهم !

فضحك منه التاجر بملء فيه وقال له : يا (لاقط) الحريم متى صار لهن رأي - انت ما سمعت القول الذي يقول : شاوروهن واعصوهن ؟

يعني لا تشاوروهن أحسن لكم ما دمتم تريدون أنكم تعصونهن .

كان لاقط يريد في الحقيقة أن يخبر زوجته وابنتها إخباراً وليس استشارة لأنه لا خيار له في هذا الأمر ، ومع ذلك لم يجرؤ على إخبار أحد بشيء من ذلك في ذلك اليوم لأنه لم يجد في نفسه الشجاعة له .

وقد حزم أمره في الصباح المبكر وقال لزوجته وهو في حالة نفسية سيئة وحتى مظهره كان سيئاً حتى إن زوجته لاحظت ذلك وقالت له : عسى ما فيك شيء يا ابو عبد الرحمن ؟

ولم يجبها على سؤالها .

وإنما ابتدأ كلامه قائلاً : أنا ضائق صدري جداً علشان (نفلا) .

فقاطعته قائلة : وش فيها ؟

ظنت أول الأمر أنه قد بلغه شيء مما يبلغ بعض الناس عن بعض بناتهم لكي تنفيه وتثبت له أن (نفلا) نقية ، بل قليلة النظير في النقاء .

ولم يكن يخطر في باله فضلاً عن أن يكون يدور في خلده ما ظنته امرأته لذلك بادر قائلاً :

هذا الدَّيَّان الذي ما يخاف الله (ملحوق) ما كفاه إنه يا كل تعبنا وهو مرتاح ، ويظلمنا لأننا محتاجون إليه حتى جاء يخطب (نفلا) !!!

صعقت الأم عندما سمعت هذا الكلام وقالت مبادرة : بنتي (نفلا) المزيونة الحبيبة تصير عند هذا الرجل المكروه الذي لا يخاف الله ، لو فيه خير ما أخذ تمرنا كله من قدام وجوهنا وخلى عيالنا يجوعون .

والله ما يدخل عليها ، وصلت بنا الحال يا أبو عبد الرحمن إلى هذه الحال ؟ ثم انخرطت في البكاء .

ولما أفاقت قليلاً قال لها زوجها بهدوء : أنا والله يا أم عبد الرحمن إني أبغضه أكثر مما تبغضينه وأعرف أنه مكروه أكثر منك، ولكن .

وهنا قاطعته زوجته محتدة قائلة : لكن ، ما نريد (لكن) هذا ما كفاه الذي سواه بنا حتى ياخذ بنتنا منا !

فتركها زوجها تبكي حتى ظن أنها قد استنفدت ما في عينيها من دموع ، وقال : الله يهلك هذا الظالم يعرف إننا ما نقدر نقول له : لا ، لأنه راهن علينا كل شيء حتى حرثي ونسلي هذا هو الذي في المكتب ،

وإذا غضب علينا من اين ناكل ؟ ومن يدينا ؟ وكل ما عندنا مرهون له ؟ وإذا لم تتدين ما نقدر نعمل بالفلاحة ، وإذا ما قدرنا نعمل ونقعد بالفلاحة وين نروح ؟ وين نروح يا أم عبد الرحمن ؟

أنت نسيتي ويش سوَّت بك زوجة (أخوك) حمد يوم انها تأخذ التمرة من يدك وانت جوعانة ؟

فانهمرت عيناها أيضاً بدموع لم يدر زوجها من أين أتت ، وأجابته وهي تبكي : لا ، والله ما نسيت يا أبو عبد الرحمن ، لكن(نفلا) ما نزوجها بشايب مكروه بخيل مثل (ملحوق) .

رأى (لاقط) أن خالة زوجته لا تسمح لها بأن تشير عليه بالرأي الذي يقتضيه العقل والمصلحة وأنها في حال عاطفية منعتها من ذلك ، فذهب إلى أمه التي كانت سارعت إلى حثه على تزويج أخته من رجل له زوجة فوجدها في مصلاها وهو مكان صغير محجوز عن أرض المنزل بحاجز من الطين ارتفاعه نحو نصف متر من أجل أن يمنع الأطفال غير المميزين من الدخول إليه وتنجيسه ببول أو نحوه .

صبَّح أمه بالخير ، ودعا لها ثم قال : يا امه ، أنا عندي شيء أبي أقوله لك ، ولم يكن يوجد أحد يسمع كلامهما ، لأن كل واحد من أفراد هذه الأسرة قد ذهب إلى عمله في الفلاحة .

ثم أخبرها ، فنفرت من كلامه ، وقالت : أبداً - يا وليدي - يخسأ الديان الظالم تجوزه بنتك ، هذي بنت صغيرة ومزيونة وهذا شايب على ما قال القايل : (نفسٍ شينة وجلد مِروح) هذا بخيل ، شين نفس وبيته مليان عيال ، وعنده حرمة قشرا (لغوية) .

فقاطعها قائلاً : يا امه ، الله يعظم أجرك ، انت أشرت عليَّ إني أزوج أختي (هيا) من رجل عنده زوجة ، فأسرعت تقول : يا وليدي ، هذا ما هو ذاك ، الديان هذا تاجر لكنه بخيل وشين نفس ، ولا عمري سمعت أحدٍ يمدحه كل من سمعته يسبه ، ولا يذكره بخير .

وصْوت العقل :

عرف ما عند أمه وما عند زوجته في هذا الموضوع الذي أهمه ، بل أقضَّ مضجعه ، ولكنه يعرف أيضاً أن المرأتين تتكلمان بلسان العاطفة وليس بمنطق العقل لذا عزم على أن يستشير صديقاً له عاقلاً

كان جاراً لهم عندما كانوا في البلدة وهو ممن يثق (لاقط) برأيه ومشورته .

ذهب إليه (لاقط) فوصل البلدة بعد العصر وقصد منزل الرجل الذي رحب به ودعاه إلى أن يصنع القهوة ويشربها معه ، ولكن (لاقطاً) شكره على ذلك قائلاً : أنا أبي أستشيرك بشيء ولا لي بالقهوة حاجة .

ولاحظ (باخت) وهذا اسم صاحبه أنه مضطرب حزين فعرف أنه جاء لأمر أهمه واعتبره كبيراً ، فقال له بجزم : لا أستمع إليك يا لاقط إلاَّ إذا دخلت منزلي وشربت قهوتي .

بينما كانا يشربان القهوة ذكر (لاقط) لـ (باخت) كل ما كان يريد أن يقوله له مما يتعلق بموضوع خطبة بنته للتاجر (ملحوق) الذي يدابنه .

فلما انتهى وكان يتكلم بنبرة كلها حزن وشعور بالغضب والمرارة ، بل والغبن والظلم .

فقال له (باخت) : أحب أن تعرف يا (لاقط) أن الدنيا هذه تأتي بالعجائب ، ولا يمكن أن يسلم من مصائبها أحد .

وكاد لاقط أن يقول إلاَّ التاجر الدائن – ولكن (باختاً) واصل كلامه قائلاً :

هَوِّن عليك – يا لاقط – أنا ظنيت أن بيرك طائحة ومندفنة ونخيلك يموت أو أن بعارينك التي تسني عليها ميتة ، أو أنه مات أحد أقاربك .

فقاطعه لاقط قائلاً : من أين الحل ؟ بنتي الغالية عليَّ أزوجها رغماً عني على هذا الشايب المكروه من أجل أنه مالكنا بدراهمه التي ما خلانا ناخذها منه إلاَّ الحاجة ؟

فقال باخت : أنا أفهم المشكلة بالنسبة لك وأفهم شعورك بالنسبة لبنتك ولكن إذا لم تزوجها لهذا التاجر الذي أنا أعرف أنه ما عنده رحمة ولا شفقة فلابد أنه يسوِّي لك أي شيء ما تطيقه ، مثلاً لو قال : أنا ما أدينك أبداً ، من أين تلقى من يدينك وهو راهن كل ما تحت يدك ، بل إنه راهن ذمتك كلها إلى ما لا نهاية له ، إلاَّ إذا أراد الله سبحانه وتعالى لك فرجاً لا يعرفه الناس ؟

فهمهم لاقط داعياً بأن يجعل الله له من كل هم فرجاً ، ومن كل ضيق مخرجاً .

وواصل (باخت) كلامه قائلاً : وإذا زوجتها منه فالأمر بين أمرين ، إما أن تصلح معه ويصلح معها ، وهذا فيه منفعة لك ،

لأنه سيعاملك معاملة أفضل لكونك صهره ، أو إنه يختلف هو وإياها ، ويفسد زواجهم ، وترجع بنتك لك ويكون هذا عذرك .

ثم أخذ يعظه ويوضح له بأنه ينبغي أن يصبر ويتحمل لأن ابن آدم معرض للمشاكل والمصاعب بل والمصائب كما قال تعالى : " لقد خلقنا الإنسان في كبد " .

ثم شربا القهوة ، وقد اقتنع (لاقط) بأخذ ما قاله (باخت) بعين الاعتبار وصار يردد الفكرة وهي أنه إما أن يصلح زواجهما أو لا يصلح وكلا الأمرين فيه مصلحة !

وماذا عن البنت ؟

لم يكن من عادتهم أن يحفلوا برأي البنت في تزويجها أول مرة لأنهم يعتقدون أنها لا تعرف الأمور النافعة والضارة في الزواج لأنها لم تكن متعلمة ، كما أنها لا تكون مدركة للمستقبل بالنسبة إليها ولما قد يكون لها من أولاد ، ولكن أهلها وعلى رأسهم والدها كانوا يجتهدون في مصلحة ابنتهم في أن يزوجوها بالكفء الذي يصلح لها ، وأن تكون في زواجها منه مصلحة لها غالبة .

غير أنه في هذه الحالة بالذات فإن أهل (نفلا) لم يكونوا مقتنعين من هذا الزواج ولا من كون الزوج مناسبا لابنتهم ، وإنما يحملهم على الاستجابة للخطبة ومن ثم إتمام الزواج مصلحة لهم أي لأسرتها لا لها !

هكذا كان (لاقط) يفكر وهو يستجمع شجاعته ليفاتح ابنته بشأن زواجها من التاجر (ملحوق) وكان طلب من زوجته أن تخبرها وتعرف ما عندها ، وتذكر لها ظروف الأسرة ، ولكن الزوجة بعاطفة الأمومة امتنعت عن ذلك .

نادى لاقط ابنته (نفلا) فأسرعت إليه وكانا خاليين وقد أسرع يقول لها : يا بنتي يا (نفلا) أبوك في مشكلة ، ما لها حل ثم أراد أن يواصل كلامه ولكنه لم يستطع أن يغالب دمعه فانخرط بالبكاء .

أجفلت (نفلا) بل فزعت قائلة : إيش فيه يا ابوي ؟ ايش فيك ؟ عسى ما هو مصيبك شيء مادرينابه ؟

فأجابها وهو لا يزال ينتحب : أبدا يا بنتي ، بس أنت ، ولم تفهم القصد فقالت له : أنا ؟ وايش في ؟ فقال مباشرة وبدون لف أو دوران : جاء لنا واحد يخطبك !

لقد عرفت بذكائها أن الخطبة أمر مفرح ، وأن والدها لم يكن ليفاتحها بمثل هذه الطريقة لو كان الأمر معتادا .

لذا اشتد إلحاحها على والدها تسأله عن الأمر .

عندئذ أخبرها بالتفصيل من أن الذي خطبها هو التاجر الظالم اللئيم الذي آذاهم ، وأخذ منهم ثمرة نخلهم ، ونتيجة تعبهم وهو (ملحوق بن تلاس) .

وقال لها : والمشكلة - يا بنتي - أني لو رديته فإنه يحاربنا ويضربنا ويخلينا نرجع للحالة التي كنا عليها من قبل .

ما أدري يا بنتي أنت تذكرين مرة بقينا ليوم كامل بتنا بلا أي طعام في الليل صرتم أنتم يا الصغار تصيحون فشاورت أمي وأمك إني أروح لمحل بعض التجار وأسرق منه تمر لأجلكم أنتم يا الصغار ، وقلت لهم : إني إذا مسكني صاحب التمر أو أمير البلد إنه يحبسني ويقطع يدي - فسارعت ابنته وقد تساقط الدمع من عينيها تقول : بسم الله عليك يا ابوي ما تحبس ولا تقطع يدك .

فقال : يا بنتي وايش أسوي أنا ، وعيالي ما عندهم ما ياكلون ؟

لكن أمي الله يعظم أجرها بكت وأطلعت ملا يدها تمر يابس قديم قالت : هذا جاني من أختي فلانة قبل أشهر ولا سمحت نفسي

آكله خله لك وعيالك - يا وليدي - لو كل واحد يتعشى ثلاث تمر ولا تسرق ، هذا شيء ما هو لنا ولا إلينا لا نصير يا وليدي أول من يسرق من العائلة .

وفي الصباح عرف بحالنا واحد من أهل الخير وأرسل لنا شوي تمر وشوي ذرة تصدق به علينا وأنا لقيت ناس يبحثون عن صبي وصرت صبي عندهم ستة أشهر باثني عشر ريال كل شهر ريالين أشتغل من تطلع الشمس إلى غيبتها .

والآن هذا الرجل يريد بشغله هذا يعيدنا إلى ما كنا عليه ! حسبي الله عليه ، أنا ما أقدر - يا بنتي - أوافق انك تروحي له وهو شايب مكروه ، وأنت بنت ما يصلح لك إلا شاب أنا راضي عنه .

وقد غالبت بنته دمعتها وتصنعت الجد ، وقالت : يا ابوي ، الله يجزاك خير ، والله إني أنا والتاجر المكروه والدنيا كلها ما تساوي دمعة واحدة تقطر من عينك !

يا ابوي قل له : إنك موافق على زواجي منه ، ولا نرجع لحالتنا الاوله ، اللّه سبحانه وتعالى لابد إنه يفرجها لنا .

صعق الرجل من رد ابنته الذي لم يتوقعه وتساقط الدمع من عينيه ، ولكنه في هذه المرة كان دمعا باردا من التأثر والفرح بجواب ابنته الذي لم يتخيله .

أما (نفلا) ، فإنها أسرعت بالانصراف من عند أبيها إلى ركن من النخل منعزل لأنه ليست لها غرفة خاصة وبكت بكاءا مرا متواصلا ، لأنها رأت أن أحلامها - ككل الفتيات في مثل سنها في أن يكون لها زوج شاب وسيم تحبه ويحبها - قد انهارت ، وأنها بدلا من ذلك قد نكبت في عواطفها بحيث يكون زوجها ذلك المسن الذي أسمته (هرما) وهو مكروه الطلعة ، سيئ السمعة بخيل ، ضيق الصدر ، سيئ المعاملة لأهله وللآخرين .

ولكنها فكرت بعد أن فرغ كل ما في عينيها وما وراء عينيها من الدموع ، بأنها فعلت ما يرضي والدها الذي تحبه وتقدره ، وما ينقذ أسرتها من الجوع والتشرد فزايلها لذلك بعض ما ألم بها ، ولكنها بيتت في نفسها أمرا للانتقام من هذا الذي تقدم لخطبتها مستغلا فقر أسرتها ، وسيطرته بالديون على والدها .

وقالت في نفسها : أنا بنت لاقط ، والله إني لانتقم منه انتقاما ما شافه في الحياة .

ثم جففت دموعها ورجعت إلى عملها في الفلاحة لئلا يرى أحد من أسرتها دمعها ، غير أنه إذا لم يكن أحد بقربها تذكرت المأساة التي ستقبل عليها وأسبلت العبرات .

لم يكد (لاقط) يستفيق ذهنه من صدمة المفاجأة التي وجدها من ابنته في قبول الزواج من (ملحوق) حتى سارع ذاهبا إلى زوجته وكانت في أقصى فلاحتهم تحصد برسيما للبقرة فقص عليها كل ما كان بينه وبين (نفلا) وكيف أنها وافقت على الزواج من التاجر .

لم تصدق الأم هذا الخبر في أول الأمر ، لولا أنها تذكرت أن زوجها لم يكذب عليها قط لا في جد ولا مزح.

لذلك عجزت أن تجد الرد المناسب وشرقت بدمعها وهي تقول : ولو ، يا ابو عبد الرحمن ، هذي بنت صغيرة ، ما تعرف مثل هذه الأمور ، لازم انت تعتذر له ! ولا تروح بنتي عنده .

فتلطف بها زوجها عارفا بالمفاجأة الكبيرة في هذا الأمر ، وقال لها : البنت عاقلة ، ووافقت وهي أعرف بنفسها ، أنقذتنا جميعا الله يوفقها ويرزقها الحظ السعيد .

فقاطعته زوجته قائلة : أي حظ سعيد عند هذا الشايب المكروه ؟ ولكن بنتك ما تحب تكدرك ، وافقت من أجل راحتك فكاد يبكي متأثرا من ذلك لأنه صحيح .

وترك زوجته .

القبول :

لم تكد تشرق شمس ذلك اليوم حتى ذهب (لاقط بن باتع الحصاد) إلى البلدة التي يقيم فيها دائنه التاجر (ملحوق بن تلاس) ويقول له : يا (ابو تلاس) البنت مثل ما تعرف صغيرة وأنا كثرت من الهرج على رأسها ، فقاطعه التاجر قائلا : البنت ما تشاور في مثل هذه الأمور لأنكم أعرف بمصلحتها منها !

فقال (لاقط) في نفسه : مصلحتها والله في أن الله يفكها منك ، ولكن الشكوى لله .

ثم واصل قائلا : الحاصل يا عم ملحوق ، أنها تبي مهر يكفي لتجهيزها حتى يكون عذرنا عندها وعند الناس إننا زوجناها لعمنا الذي يقدر يرسل لها مهرا ما يقدره الشبان ، وهي تراها تريد صوغ ذهب ، فقاطعه التاجر مزهوا بنفسه ؛ هي قالت لكم هذا ؟

فأجاب لاقط : لو ما قالت ، هذا شيء معروف عند الحريم ، ولازم أنها تعرف ويعرف غيرها إنها متزوجة من رجل غني مثل العم ، ما هي متزوجة برجل فقير ، أو ماله قيمة .

المهر :

بعد نحو أسبوعين أرسل التاجر (ملحوق بن تلاس) المهر مع رجل في ظاهر الأمر ولكنه في الواقع كان أحضره معه إذ ركب على حمار والرجل الآخر يرافقه على حمار خارجين من البلدة التي يقيم فيها التاجر وعندما قربا من مكان الفلاح أرسل التاجر رفيقه إلى (لاقط) فناداه ، وسلمه المبلغ النقدي وهو خمسون ريالا فضيا من الريالات الفرانسه كما يسمونها ، وهي ريالات كبيرة كانوا يتعاملون بها في ذلك الوقت ، وهي مهر جيد لمثلها في ذلك الحين .

ثم رجع (ملحوق) إلى البلدة أما رفيقه الذي يحمل المهر غير النقدي أو الجهاز كما يسمونه فإنه ذهب مع (لاقط) حتى أدخله بيته .

كان (الجهاز) يتألف من لحاف للفراش ورداء للغطاء وثوبين للعروس أحدهما حريري جيد والآخر قماش معتاد وثوب رديء

لأم العروس كل ذلك من قماش غير مخيط وكذلك قطعة من قماش أبيض بمثابة الثوب لوالد العروس (لاقط) .

لقد حز في نفس لاقط أن (ملحوقا) لم يرسل مع المهر قطعا من القماش أو على الأقل قطعتين إحداهما تكون ثوبا لأمه - جدة العروس - والثاني لأخته عمتها ، ولكنه فكر في نفسه بأن يشتري من هذه النقود الفضية ثوبا لكل واحدة منهما ، إلا أنه راجع نفسه بأن ذلك لابد فيه من إذن ابنته (نفلا) لأنها تملك هذا المال لأنه مهرها

ولذلك نادى ابنته (نفلا) وذكر لها ذلك فقالت : يا ابوي ، المال مالك أنت الذي غذيتني وربيتني .

ولكنه قال لها : لكن المال مهرك وهو لك ، وأنا سمعت بعض المشايخ يقول : إن الوالد ماله حق يأخذ من مهر بنته أي شيء إلا بإذنها .

كان يقول هذا الكلام بحضور أمها وعندما ذهبت أمها قالت له : يا ابوي ، أنا أحب أتكلم معك ولا يسمعنا أحد فذهبا بعيدا فقالت له :

يا ابوي هذا التاجر انت تعرفه أكثر مني ولا يمكن إننا نعمل شيئا له يفرحه أو يظهره بمظهر جيد ، لذلك أنا رأيت أن مهري الذي هو (٥٠) ريالا لك أنت ، تخليه عندك للزمان يمكن نختلف

مع هذا المدين ولا يدينك أو يؤذيك يريد دينه عاجلا فتستعين بها عليه أو في حاجة أخرى إن أحوجك الزمان لها .

فاستنكر ذلك واستغربه ، وقال : يا بنتي ، هذا مهرك نشري منه إن شاء الله لك ذهب تتزينين به ، وينفعك ان احتجت له .

فقاطعته قائلة :

أتزين به لفلان ؟

والله لو بيدي إني أصير أشين الحريم بعينه إني لأسويه !

فقال لها : وإن شاء الله نسوي منه وليمة العرس عشاء يعزم عليه العريس أقاربه وأصحابه .

فقالت : والله يا ابوي ما تسوون له عشاء هو ما يستحق لا عشاء ولا حتى ماء يشربه .

فقال لها : لكن أنت - يا بنتي - تستحقين من يصنع وليمة كبيرة لعرسك ، فقالت : لو كان عرسي على غيره يمكن ، لكن هذا لا .

ثم قالت : يا ابوي ، الريالات هذي خلها عندك لحاجات الزمان ، لو خرجت من الفلاحة ما تعرضت أنت وعيالك لمثل ما تعرضت له من قبل من الجوع .

فقال لها : لكن – يا بنتي – ويش أسوي بها ؟

فقالت : تقدر تدفنها في الأرض حتى تحتاجها ، أنت تعرف المثل الذي يقول : (الارض ما تخبر بالذي فيها) .

فقال : سمعت المثل ، لكن هذا للذي عنده دراهم ما يحتاج إليها .

فقالت : لكن أنت يا ابوي يمكن تحتاج إليها في المستقبل أكثر من حاجتك إليها الآن !

وقد عرف صواب كلام ابنته ، ولم يكن قبل ذلك يفكر بأنها تبلغ من النبل والتضحية هذا المبلغ ، إلا أنه أضاف قائلا : وبعد يا بنتي أنت جزاك الله خيرا ، أحسن نظر منا في الانتقام من هذا الرجل الذي آذانا وأخذ قوتنا من بين يدينا بعدما نهبنا باسم البيع مستغلا حاجتنا ، وسوف أحفظ المبلغ لك – يا بنتي – !

فقالت له : أبدا – يا ابوي الله يطول عمرك – المبلغ لك لكن لا تنفق منه الآن أي شيء .

وبعد أن استفاق من سذه الصدمة المفرحة اتفق معها على أن يأخذ منه ثلاثة ريالات أحدها يشتري به ثوبا لأمه يقول لها : هذا من جهاز (نفلا) والثاني يشتري به ثوبا لأخته (ميثا) يقول لها مثل ذلك ،

الثالث يعطيه أمها نقدا ، يقول لها هذا حقك من مهر (نفلا) والباقي يخبئه ، وقد دفنه بالفعل في مكان في الأرض لا يعرفه إلا هو .

شهامة بنت :

أبدت (نفلا) من فنون الشهامة ما لم يكن يخطر لوالدها ببال ، ولكنها شهامة ممزوجة بروح الانتقام .

ومن ذلك أنها أعطت اللحاف الذي أرسله لها زوجها لأمها قائلة ووالدها يسمع : يا أمي ، أنت ما عندك لحاف أشوفك أنت وأبوي تنامون على الأرض أو على فراش خوص لازم تأخذين هذا اللحاف الجديد لك تنامين عليه أنت وأبوي ! ! !

وقد فوجئ والداها ، بل ذهلا من هذا الكلام الذي لم يسبق أن عملت عروس مثله من قبل ، وقالا : هذا لا يمكن ، اللحاف لحافك وإذا رحت إلى بيت زوجك تنامين بلا لحاف ؟

فقالت : بالنسبة لي أنا تعرفون إني أنا وكل الذين معي في البيت ينامون بلا لحاف ، وبالنسبة للرجل إذا أحب هو أن ينام معي على لحاف يقدر يشتري لحافا آخر ، لأنه غني ، ولا يصعب عليه شراء لحاف !

فقالا بلسان واحد : إيش تقولين له إذا قال لك : أين لحافك الذي أرسلته ؟ فقالت : أقول أخذته أمي لأنها ما عندها لحاف وهو يعرف أنها ما تقدر على شراء لحاف ! وإن أصر على ذلك أقول : أنا أعطيتها اللحاف ! وهو ملكي ما هو ملكه ولا ملك غيره .

وقد بكت أمها لهذه البادرة التي لم تكن تحلم بها ، وقالت لزوجها : يا ابو عبد الرحمن ، انت الله يهديك ما قدرت تعطيني لحاف أنام واياك عليه ، وبنتي الله يصلحها هي أعطتني إياه .

فذكر في ذهنه موضوع النقود التي أعطتها إياه ومهرها فقال: الله يوفقها ويخليها لنا نفعتنا نفعا ما ينفعه الأولاد أهل الصلاح لأهلهم !

ثم قال لها : انت تذكرين يوم تولد (نفلا) وتكدرين أنتْ وانا لأننا نريد أن يكون المولود ولدا ، وأقول لك : ما يدرى الخيرة وين تكون ؟

فانبرت زوجته ترد عليه وتقول : لا والله إلا يا ابو عبد الرحمن أنا قلت كذا ما هو أنت ، أنت ما تريد البنت تريد الولد ، والحمد لله الذي رزقنا ببنت أنفع لنا من الولد ، والله إن ابنتي (نفلا) تشتغل بالفلاحة أكثر مما يشتغل الولد الذي في سنها ؟

فأضاف قائلا : والآن انت شفت هذي الأفعال التي ما يسويها الولد البار ! فحمدا الله تعالى ودعوا لبنتهم بالتوفيق ، وأن يعوضها عن هذا الزواج بزواج آخر مبارك ، وأن يكون ذلك على خير من الله وستر من الناس .

قالت البنت لأمها : أحب أقول لك شي ما قلته من قبل وهو أن ثوب الحرير الذي أرسله الرجل مع جهازي أنا ما أنا بلابسته ، ما يلبسه إلا أنت .

وفوجئت أمها بهذا الكلام وقال الأب قبل أن تستطيع الأم أن تنبس ببنت شفة : وانت ويش تلبسين يا (نفلا) ؟

فأجابت ألبس الثوب الردئ الذي أرسله لأمي وألبس الثوب الآخر الذي ما هو بردئ ولا جيد يكفيني ثوبين ، فقال : إيش تزينين به ؟ قالت : ما أحب أتزين له بشيء .

وهنا كانت أمها قد أفاقت من ذهولها وقالت : أنا يا بنتي ألبس ثوب حرير ؟ فقالت (نفلا) : نعم .

فقالت الأم : أنا في حياتي كلها ما لبست ثوب حرير حتى ليلة عرسي ما لبسته ، ما جا أبوك لي إلا بثوب قطن !

الزواج :

كان موعد زواج (نفلا) و (ملحوق) ليلة الجمعة ، مساء الخميس بعد ثلاثة أسابيع من وصول المهر إليهم .

كان (لاقط) قد أخبر التاجر (ملحوقا) بأنه لن يقيم وليمة عشاء لأنهم لا يطيقون تكلفتها .

ولما قال له (ملحوق) : ولكنني أرسلت إليكم دراهم ، قال لاقط : أنت نسيت - يا عم - إنني مديون لك ، كيف أنفق على وليمة وأنا ذمتي مشغولة لك بدراهم وتمر ، ثم إن المهر الذي أرسلتوه هو لبنتي (نفلا) وليس لي ولذلك لا أستطيع أن أتصرف فيه بشيء ! قال لاقط لملحوق ذلك حتى لا يكثر من عدد الذين يأتون معه ، لأنه إذا لم يكن في العرس وليمة فإن عدد الذين يحضرونه يكون قليلا .

ولذلك لم يزد راكبو الحمير الذي جاؤا مع (ملحوق) ليلة الزفاف عن سبعة معهم مثلهم من الراجلين من الشبان وبعض الأجراء ، واقتصر الأمر على شرب القهوة التي صنعها (لاقط) في بيته ولكنه استعار بعض الدلال - أباريق القهوة - من أحد سكان القرية .

وودع الذين جاؤا مع ملحوق صاحبهم ، لأنه لا يوجد مكان مناسب لهم عائدين إلى البلدة وذلك لكونه لا يوجد مكان للنوم في القرية .

أما ملحوق فإنه دخل على عروسه (نفلا) فوجدها على اللحاف الذي اشتراه لها وكانت وهبته لأمها تريد من ذلك ألا تأخذه معها إلى بيت زوجها .

وفي الليل كانت (نفلا) محتشمة عن زوجها مبتعدة عنه كما يكون عليه الأمر بالنسبة إلى الفتاة التي تتزوج لأول مرة .

وفي الصباح كانت القهوة غير الجيدة فاضطر إلى أن يأخذ زوجته معه إلى بيته ليس معها إلا والدها ووالدتها من أجل أن يؤنسا وحدتها في الطريق لأنهما يعرفان أن زوجها بالنسبة إليها ليس مؤنسا لها بل عبئا عليها .

ولاحظ (ملحوق) أنهم لم يأخذوا مع (نفلا) أي شيء من المتاع وبخاصة الفراش الجديد الذي أرسله وهو اللحاف والرداء فظن أنهم سيرسلونه فيما بعد .

دخلت (نفلا) وأمها في الغرفة التي كانت أعدت لها في بيت ملحوق وهي غرفة من الطين كانت غرفة زوجته المتوفاة (أم صالح) ولكنها

خالية من أي شيء في انتظار أن تأتي (نفلا) بما يصلح فيها غير أنها لم تأت بشيء .

وفي المساء عندما دخل زوجها عليها وجدها جالسة على حصير قديم كان موجودا في الغرفة ، فسألها عن اللحاف ، فقالت : أخذته أمي ، فقال : ولكنه لك ، كيف تأخذه أمك منك ؟

فأجابت أنا أعطيتها إياه ، فقال : كيف تعطينها إياه وتبقين بلا لحاف ، فقالت : اللحاف لحافي من مهري وأنا أعطيته أمي .

تكدر (ملحوق) من ذلك لأن معناه أن يشتري لها لحافا جديدا ، لأنه لا يمكنه أن ينام على حصير وبخاصة أن بعض نساء الأسرة سوف يأتين لرؤية غرفة (نفلا) فلا يجدن فيها لحافا ، لذلك أسرع في الصباح إلى الذي يخيط اللحف والمضربات ، واشترى منه واحدا جاهزا بثمن زائد عن العادة لأنه كان يصنع اللحاف بناء على اتفاق مع صاحبه ، بحيث يندف له القطن ويجهز الخيوط ويختار القماش ، ولكن الوقت كان ضيقا بالنسبة للملحوق ، وقد سر حين وجد عنده لحافا جاهزا .

وفي مساء ذلك اليوم الذي هو اليوم التالي لوصول (نفلا) جاءت نسوة من أسرة ملحوق لرؤية (نفلا) وكانت أمها لا تزال عندها وسوف تغادرها في صباح الغد لأن العمل في فلاحتهم لا يستغني عنها أبدا .

ولاحظن أن (نفلا) ليس عليها أي شيء من المصاغ رغم غنى زوجها وفهمت أخت له اسمها (سلمى) فذكرت ذلك له ، فقال : أهلها ما شروا لها ذهبا ، فقالت : أهلها فقراء وهذي زوجتك ، الناس لابد يقولون : إن زوجها بخيل ، لأنه غني ولا شرى لامرأته الصغيرة أي حلية من الذهب .

وقد اضطر تحت إلحاح أخته التي أحبت (نفلا) أن يشتري لها سوارين من الذهب بمعرفة أخته التي رأت ما عليه (نفلا) من التهذيب وحسن التصرف تجاه الأخريات من النساء وهو أمر مقصود منها ، إذ كانت (نفلا) قد أسرت في نفسها أن تعامل جميع من في الدار ممن يأتون إليها معاملة كريمة حتى وإن وجدت من بعضهم معاملة سيئة وأن تخص بالمعاملة الفعلية السيئة زوجها لما تكنه في قلبها من ضغينة عليه .

الخطة :

لقد كانت (نفلا) أسرت لأمها خطة الانتقام من (ملحوق) ولم تخبر بها والدها لئلا يتكدر ويفزع من أن ينتقم منها في شخصه وتتلخص في أن لا تدعه يقربها مطلقا وأن تتعلل بتعاليل كثيرة ، حتى إذا لم تفد صارحته بما لا يريده وهو أنها لا تريد أن يولد لها ولد وهي صغيرة ، وهكذا كان .

لقد ترك (ملحوق) زوجته (نفلا) بضعة أيام لا يسمعها ولا يطلب منها إلا ما تريده وكان من عمره الذي بلغ الستين في حالته الصحية السيئة ما يحمله على ذلك لاسيما بالنسبة لنفلا التي هي في الخامسة عشرة من عمرها وتتمتع بصحة جيدة وبنية قوية ، بسبب التمرن على العمل الشاق الذي كانت تمارسه في الفلاحة قبل ذلك .

فأول ما حاول الاقتراب منها قالت له : إنها لا تصلي .

واستمرت أياما عديدة ، بل أسابيع تذكر له هذه العلة وهي تصلي سرا عنه حتى تجسس عليها فرآها تصلي ، وذكر له بعض أهل بيته أنها تصلي فذكر لها ذلك غاضبا ، فقالت له ، الحمد لله أنت عندك زوجة غيري ما هي كبيرة ، وعادة نسائنا ألا يقترب منهن الأزواج إلا بعد مدة .

لم تكن حالة (ملحوق) في سنه واعتلال صحته تحدوه إلى شدة الاقتراب من زوجته هذه الصغيرة ، بل إنه كان يشكو في قرارة نفسه من أنه لا يقوم بالواجب الزوجي تجاه زوجته التي عنده (أم محمد) فرأى أن يجدد شبابه - فيما زعم - بالزواج من هذه الصغيرة وظن خطأ أنها ستساعده على ذلك .

لذلك قنع بأن يشبع غروره بكونه تزوج من فتاة صغيرة أعجب كل من عاملها من أهل بيته بشخصيتها وحسن معاملتها لهم .

حتى زوجته (أم محمد) التي لا تزال في الخامسة والثلاثين ، رغم كونها أنجبت منه خمسة أولاد ، إذ كان تزوجها وهي في سن الخامسة عشرة .

وأعظم ما جعل العلاقة حسنة بين الزوجتين أن زوجهما لم يبق فيه مما تتنافس عليه الزوجات في العادة شيء وهذا بالنسبة لما كانت تفكر به وتعرفه (أم محمد) أما نفلا فإن لها خطة أخرى .

لاقط بعد زواج ابنته :

أحس لاقط بفراق ابنته لأنها كانت تعمل عملا نشطا في الفلاحة والزرع وكانت أخته التي تزوجت تفعل مثل ذلك أيضا وقد أحس بفراغ للمرأتين لم يستطع أن يسده .

وقد شكت عليه زوجته من كثرة العمل وإرهاقها فيه ، فحاول أن يجعل ابنه عبد الرحمن وهو لا يزال في الثانية عشرة من عمره يعمل عمل الكبار ولكن الابن كان نزقا غير مطيع ، وغير صابر على العمل فكان ذلك مدعاة للنزاع والمخاصمة بينه وبين والده .

ومرة جلس (لاقط) مع زوجته وأمه وأخته يبحثون هذا الأمر فقالت أمه : يا ولدي يا لاقط في الأول كان عندنا خمس حريم ورجال هو أنت الله يحفظك والآن ما عندنا إلا ثلاث حريم ، لازم ما يشتغلن إلا الشغل الذي يكفي لإعاشة الموجودين في البيت الذين نقص عددهم .

فقال لها : أرجو أن توضحي ذلك ، يا أمي ، فقالت : بالأول الشغل كثير لأن الذين يأكلون عندنا كثير وفي الوقت الحاضر قل عدد الذين يأكلون عندنا ، لذا ينبغي أن يقل العمل .

وقد وافقها الجميع على رأيها ماعدا (لاقطا) الذي قال : - يا أمي الله يعظم أجرك - أنا رجل مدين ، وأحتاج إلى إنتاج كثير من الفلاحة فقاطعته أمه قائلة : من جهة الدين عمك الديان

(ملحوق) صار صهرك ، ولا يمكن يشدد عليك ، وهذا ولدك عبد الرحمن الله يصلحه صار من عداد الرجال عمره ١٢سنة .

فقال لها : عبد الرحمن ما يعتمد عليه عجزت عنه يشتغل معنا ما أدري إيش أسوي به .

وقد طفح الكيل بالنسبة إليه حتى ضربه والده من أجل أن يعمل مثلما يعملون وحسب جهده وطاقته مما جعله يهرب من والده إلى مكان غير معروف لأهله ،وبعد بضعة أيام عرفوا أنه موجود عند قوم يعمل عندهم بطعام بطنه .

وقال والده لأهله : انظروا إلى هذا الجاهل يهرب من العمل مع والده وأهله ويعمل عند الناس ، ولكن هذا أحسن خلوه يجرب العمل عند الناس الذين لا يرحمونه حتى يزيد حبه لنا .

وما ذا عن الدراهم ؟

كلما ذكر (لاقط) تلك الريالات الفضية الكبيرة التي لديه شعر بارتياح بل بسعادة بالغة ، لأنه لم يسبق أن ملك مثلها من قبل ، ولكنه كان يشعر أيضا بالحيرة لأنه لا يدري ما يصنع بها ، صحيح أنه قد دفنها في الأرض ، بغية حفظها ولكن إلى متى ؟

لقد هداه تفكيره أن يفزع إلى صديقه (باخت) ليستنير برأيه حول هذه الدراهم التي لم يسبق أن ملك في حياته كلها مثلها .

سرد على (باخت) قصة تلك الريالات وقال : إنه لم يسبق أن ملك مثلها وأن ابنته (نفلا) التي أعطته إياها طلبت منه أن يجعلها ذخرا عند الحاجة حتى رأت أن يدفنها في الأرض في مكان لا يعرف به أحد غيره وقد فعلت .

قال : لكن أنا مدين وعيالي محرومون فهل أستفيد منها أم لا ؟

فقال باخت : لا أدري إن كان دفنها في الأرض هو المناسب ، لأنك أولا لابد من أن تخسر عليها زكاة كل عام بعد أن يحول عليها الحول ، وإلا أصبحت عاصيا مانعا للزكاة وهذا معناه أن تدفع عنها كل سنة ما يزيد قليلا على ريال وثلث ، وثانيا : أنت قد تنسى مكانها أو يحصل لك عارض يخليك تنساه ، فتصبح مجهولة ، ولا تنتفع بها .

وابنتك عندما أرادت لك أن تدفنها إنما تريد أن لا تضيع هذه الدراهم منك ، ولم تكن تعرف وسيلة أخرى لاستثمارها مع حفظها .

والرأي عندي أن يبقى سرها كما هو ولكن استثمرها .

فقاطعه (لاقط) قائلا : أستثمرها ؟ ولم يكن سمع من قبل بهذه اللفظة ولم يكن من الذين يفترض أن يسمعوا بها فضلا عن أن يستعملوها .

فقال باخت : لا شك أنك ما تعرف معنى استثمارها لكن أنا أوضح لك : لي رفيق بدوي يتعامل مع الحضر ولا يبعد عن ديار الحضر كثير وهو صدوق ومأمون ، ومعه ديانة أنا أعطيته كم شاة مثل نوع البضاعة ، هل تعرف نوع البضاعة ؟ فقال لاقط : سمعت بها ولا أعرفها قال : أعطيه الشاة والشاتين والثلاث حسب ما عندي من الدراهم ولا أشري الشياه وأعطيهن إياه إلا إذا كان سعرهن في السوق ما هو بغالي ، يأخذهن ويرعاهن هو وحظه إن كان الربيع قريب يعني الرعي الذي تأكله الغنم وإلا راح بهن للرعي البعيد ، وهو مصلاح يحرص على أنهن يلدن ويحفظهن والشرط الذي بيني وبينه أنه له ربع المكسب الذي يأتي من الغنم فإن لم يحصل منها مكسب فإنه ليس له شيء ويذهب تعبه عليها .

فسأل لاقط عما إذا كانت توجد أخطار على الغنم كالذئب الذي يأكلها ، والراعي الذي يهملها ؟

فأجاب باخت بأن الخطر بل الأخطار موجودة وأهم ذلك المحل أما الذئب فإنه قد يأكل منها شيئًا ولكن الرجل لديه بندق ويحفظها عن الذئب ولكن المحل الذي ينشأ عن احتباس المطر هو المشكلة الكبرى لأن الغنم لا تجد عشبا في الأرض ، فيضطر أهلها إلى أن يشتروا لها العلف من الشعير أو نحوه وهذا فيه خسارة عظيمة ربما تكون أكثر من قيمة الغنم إذا طال الزمن عليها .

لكن أنت تعرف - يا لاقط - إن الدنيا ما فيها شيء مضمون حتى الفلاحة قد يأتي لها جراد أو دبى أو يصيب طلعها مرض وهو صغير فتفسد ولا ينتفع منها لكن الإنسان يعتمد على الله سبحانه وتعالى ويدعوه والتوفيق بيد الله .

ثم قال باخت : إن ريالاتك وهي (٤٧) يمكن أن تشتري بها تسع شياه صغيرة وتعطيها الرجل الذي هو راعي ومعه زوجته وأولاده وإن شاء الله إذا ساعدهن الله ما تمضي سنة إلا كل واحدة والدة إما خريف والا رخلة وهي الأنثى من الضأن ، وإذا ساعدهن الله سبحانه وتعالى بالربيع ووفرة العشب ما تمضي سنة ثانية إلا غنمك صايرات (٣٦) فإذا قلنا إن كل واحدة بخمسة ريالات

مع أن الكبار منهن يسون أكثر فمعنى ذلك أنها كسبت حول ثمانين ريالا يأخذ الراعي ريعها ويبقى لك (٦٠) ريالا مكسبا مع رأس مالك .

ثم استدرك قائلا : لكن انتبه أنا أقول : إذا ساعدهن الله فإن صار العكس ولا نزل مطر ولا صار بالبر عشب فيمكن أنهن كلهن يذهبن .

لكن أشير عليك - على كل حال - أنك تسبب وتعطيهن الرجل الموثوق به والرزق على الله .

فقال لاقط : لكن أنا ما أحب أن أحد يعرف انهن لي ، فقال باخت : أبدا ما يعرف أحد ، أنا أعطيهن إياه على أنهن لي وأشهد أولادي الاثنين أنهن لك وأنت تعرف أولادي أنهم ثقاة ومأمونين وأعطيك مع هذا ورقة تحفظها عندك أن الغنم لك .

وهكذا كان ، اشترى باخت تسعا من صغار الضأن الإناث وأعطاهن (منيحان) وهو البدوي الذي يأخذ الغنم ويصلحها .

وقد أنزل الله المطر في تلك السنة فصارت سنة خصب وربيع فنمت الغنم وكان لغنم (لاقط) من ذلك نصيب .

الحياة المعتادة :

سارت الحياة في قرية (المتطرفة) التي يسكنها (لاقط) كما كانت وكان أن مرض (المطوع) ... فخلا مكانه فيما يصح أن يسمى بمجلس القرية ، وإن لم يكن مجلسا رسميا ، ولكنه مجلس لتناول القهوة عند ذلك الوجيه ، مرة في الأسبوع ، وقد افتقده أهل الدين والمحبة لسماع وعظ المطوع أما الجماعة الأخرى التي تحب النكت والحكايات من أهل القرية فإنهم أبدوا ارتياحهم للغياب المؤقت (للمطوع) ، لأنهم لا يحبون طريقته في الإكثار من الوعظ وكثرة تخويف الناس من عذاب الآخرة مع أن بعضهم يشك في كونه قد يعمل أحيانا ما ينهاهم عن عمله .

وكان من أهل القرية شخص مشهور برواية الحكايات والأخبار التي لا أساس لها ، بل إن بعضهم يرى أنه هو الذي يختلقها من ألفها إلى يائها ومع ذلك كانت تعجب عددا منهم وكان الوجيه صاحب البيت يعجبه ذلك واسم ذلك الرجل (دحام) .

قال أحدهم : يا دحام ، المطوع غائب ونحب أنك تقص علينا بعض قصصك التي لنا مدة ما سمعناها ، فقال صاحب البيت : نعم ،

يا دحام قص علينا ، واعرف أننا ما نريد نسمع منك إلاَّ الذي حصل لك خاصة ما هو الذي سمعته من الناس .

فقال : نعم ، مرة أنا مسافر على ذلولي وحدي ما معي أي رفيق والوقت كان حراً جداً والشمس ساطعة ما عليها غيم ، وأنا أبحث عن مكان اتذرى فيه من الشمس ولا وجدت ، فقلت لناقتي من باب العبث : يا ناقتي لا تلوميني على المشي بالشمس تراي ساعة ما ألقى شجرة لها ظلال أقيّل وأرِيّحك !

قال : ولم أشعر إلاَّ بشيء خلفي على البعد يسير مع الطريق الذي كنت أسير فيه قبل قليل ولم أكن رأيت فيه أي شيء ، وقد تمهلت قليلاً وإذا بذلك الشيء شجرة تمشي لكنها عندما وقفتُ أنا وقفَت ، فاعتقدت بأن تلك الشجرة قد سمعت ما قلت لناقتي ، وأنها جنية متصورة بصورة شجرة .

قال : فأسرعت بناقتي حتى جعلتها تجري فأسرعت تلك الشجرة مثلي ولما هدأت من سير الناقة هدأ سيرها أيضاً وكنت أراقبها إذا أسرعتُ أسرعَت وإذا وقفت وقفت وإذا سرت قليلاً فعلت مثل ذلك .

قال : وقد عجبت من أمرها وأنا في منتصف النهار ، ولا فيه خوف فأنخت ناقتي وأنزلت متاعي لأتغدى ، وإذا بالشجرة تسرع وتقف بجانبي بحيث ظللتني أغصانها من الشمس وقد سارعت أذكر اسم الله من أجل أن تذهب عني إذا كانت جنية متصورة بصورة شجرة ولكنها لم تذهب مما جعلني أعتقد أنها بالفعل قد سخرها الله لتظلني من الشمس وقد استرحت تحتها .

وكان في الأرض التي أنا فيها حطب كثير صالح لإيقاد النار به ، ولكني رأيت في الشجرة غصنين كأنهما من الأغصان الجافة فكسرتهما من أجل أن أوقد بهما النار ، وإذا بالشجرة تضطرب أغصانها وتبدو أغصانها تنبسط وتنقبض كأنها تهددني وصار ظلها يبعد عني شيئا فشيئا ، قال : فعرفت أنها غضبت مني لكوني كسرت منها غصنين ! فاعترض أحد الحاضرين عليه قائلا : إيش يدريك إنها غضبانة عليك ، يمكن إن الهواء هب عليها وخلاها تتمايل فظننت أنها غاضبة

فقال (دحام) محتدا : أبدا ما فيه هواء والريح ساكنة .

فقال أحدهم من المشتاقين لسماع بقية الحكاية : حتى الهواء لو كان موجودا كان يكون يجي من جهة واحدة ما هو مع أكثر الجهات ،

ثم قال يخاطب ذلك المعترض : لا تعترضوا على (دحام) خلوه يكمل لنا القصة .

قال دحام : فعرفت أنها غضبانة مني ، فابتعدت عنها أنا وبعيري قليلا ، وجلسنا في الشمس المؤذية ، وإذا برجل على حمار يأتي معه فأس كبيرة ويسلم علي فسألته عن اسمه وعمله فقال : أنا حطاب ، كنت ذاهبا إلى مكان بعيد لأجلب منه الحطب . ولكني رأيت هذه الشجرة في هذا المكان الذي لم أعهد فيه شجرا من قبل فأحببت أن آخذ منها ما يكفيني من الحطب ولو كان رطبا لأنني سأتركه في الشمس حتى ييبس !

قال دحام : فقلت له : والله لن تقطع من هذه الشجرة غصنا واحدا ، بل ولا ورقة واحدة ثم خطفت منه فأسه ووجهته إليه وقلت له : والله لن أعطيك إياه حتى أعرف أنك لن تمس هذه الشجرة ، وكنت أقوى منه جسما ، وأكثر شبابا فخاف مني ، وذكر أنه لن يمسها ، إلا أنني لم أثق به وقلت له : لابد أن تبتعد عن هذه الشجرة بعيدا حتى أعيد إليك فأسك ثم ركبت حماره وهو يمشي بجانبي حتى بعدنا عن الشجرة فأعدت إليه فأسه .

قال (دحام) : ولا شك عندي أن الشجرة تسمع كل ذلك ، ولذا جاءت إلي وظللت علي وعلى بعيري فمن شدة امتناني لها أخذت قربة كبيرة كانت مليئة بالماء فصببتها على جذعها وقلت : اشربي أيتها الشجرة العزيزة من هذا الماء الطيب !

ثم تذكرت بعد ذلك أنني مسافر إلى أرض ليست فيها موارد للماء وأن الحر شديد وقد فعلت من حيث لا أشعر ما فيه هلاكي وربما هلاك بعيري أيضا من العطش لأنه سوف يبقى معي حتى يجد ماء وربما لا يهتدي إلى أي ماء وجعلت أحدث بعيري بهذه المشكلة ومع ذلك ركبته مسرعا على رجاء أن أصل موردا من موارد الماء ولو غدا وإن لم أكن على يقين من ذلك ، قال : وإذا بالشجرة تتبعنا وإذا بها تتقدمنا على خلاف العادة ، وعندما صارت أمامي انقلبت إلى بئر !

تنهد القوم المستمعون ، وبعضهم أبدا عجبه وبعضهم قال : هذا غير معقول !

وقال أحدهم ممن يحب سماع الحكاية كلها : قل لنا كيف انقلبت الشجرة إلى بئر !

قال دحام : انقلبت إلى بئر أمامي فقد رأيتها تغوص في الأرض منكسة أرى فرعها الواسع هو الأسفل ، وجذعها هو الأعلى ، وما زالت تغوص في الأرض حتى اختفت فيها ، فنزلت مسرعا من بعيري وأطللت

في مكانـــها فرأيـــت المـــاء بعيـــدا في أســـفل مكانـــها وبـــين أغصانـــها ، فحمـــدت الله تعـــالى وشـــكرته ، وأســـرعت أدلي دلـــوي في البـــئر حتـــى أستقي منه وأسقي بعيري وأملأ قربتي ، وإذا بالرشاء الذي فيه الدلو قصير ، وتبين لي من ذلك أن الشجرة لم تعرف مقدار رشائي إلا لما غاصت في الأرض إلى هذا القدر .

قال : فوصلت الرشاء (بغترتي) واستقيت الماء الذي أرواني وبعيري وحملت ما أريد منه !!!

وقال أحدهم : وبعد ذلك ؟

فقال دخام : انتهت القصة .

فقال آخر : قل : وبعد ذلك انتبهت .

فقال : وبعد ذلك انتبهت ، ثم فطن إلى ما تدل عليه هذه الجملة فقال : هل معنى ذلك أنني كنت نائما ؟ وكيف أنام في الصحراء وسط النهار ؟ وأسير راكبا على بعيري !

وضحك الجميع لأنهم يعرفون أنها إذا كانت رؤيا فإنه سيرى فيها ذلك وغيره .

أكذب منه : قال الذين أعجبوا بهذه الحكاية ولم يكلفوا أنفسهم الحكم عليها بأنها خيالية أو حلم من أحلام المنام : نريد منك يا دحام غيرها ،

فقال : ما عندي إلا هي فقال أكثر من واحد : هذي ذكرت أنها حصلت لك ولابد أنك سمعت غيرها مثلها من غيرك .

فقال : نعم ، سمعت مثلها من ثلاثة أصدقاء يقول الناس : إنهم أكذب مني ، وأنا ما أحب الكذب ، ولا أحب إني أكذب ، ولكن الناس يقولون : إني أكذب .

قال : الأصدقاء الثلاثة حضرت مجالسهم وأعجبني كلامهم : أحدهم في الثالثة والأربعين من عمره اسمه (غطيمل) وذلك أنه أصاب عينيه رمد حاد فذهبت إحداهما كلها والأخرى لم يبق فيها من الإبصار إلا نحو العشر ١٠٪ .

قال غطيمل : سقط الدلو من يدي في البئر في بيتنا فنزلت لأخرجه منها وكانت البئر ضيقة وقبل أن أصل قعرها وجدت في جانبها كالصدع أو الممر فدخلته وهو لا يتسع لأكثر من شخص واحد بدافع الفضول وكنت أتحسس جانبي الصدع بيدي لأن المكان مظلم ، وأنا نظري ضعيف جدا عندما مشيت فيه قليلا سمعت أصواتا غريبة لم أسمع بمثلها ولا ما يقاربها من قبل وما يشبه الموسيقى فتعجبت من ذلك ، وقلت في نفسي : ربما كان هؤلاء

من الأغنياء من جيراننا أو جيرانهم الذين يحفرون لهم مكانا تحت الأرض ينزلون إليه في درج فيكون بادرا في الصيف دافئا في الشتاء ، والأهم من ذلك أنهم ينالون من الطرب والشراب بل والشهوات من غير أن يشعر بهم أحد ، وقلت في نفسي : إنني إذا رأيتهم كذلك هددتهم بأن أكشف سرهم إلا إذا أعطوني مالا أشترطه عليهم .

قال : وكلما أمعنت في هذا الصدع في الأرض الذي هو كالممر زادت ظلمته وزادت الأصوات مما جعلني أواصل السير حتى وصلت إلى باب مردود وليس مغلقا ففتحته وإذا بي أرى لدهشتي ما زلزل عقلي ، وهز كياني ، وهو أنني صرت أبصر فيه حتى الأشياء الدقيقة ، مع أنني كنت من قبل لا أكاد أبصر الحيطان مما جعلني أتذكر أيامي الخوالي عندما كنت صغيرا ، وقبل أن يصيب الرمد عيني ، وقد لبثت خلف الباب أرقب ما بداخله فرأيت شيئا من الآواني والأدوات بل وما يبدو كالملابس ولكن ليس فيه مما عندنا وما نعرفه شيء وأما الأشخاص المتحركون فإن منظرهم كاد يصيبني بالإغماء وكذلك أشكالهم بحيث لا أستطيع أن أصفها فمثلا هناك ما يشبه السلحفاة إلا أنه ليس سلحفاة وما هو طويل مرتفع يبلغ طوله عنق

الزرافة ، وما هو طويل ممتد على الأرض أقرب ما إليه شكل الحيات وهي التي عرفت منها أشكالا من الحيات كنت قد رأيتها من قبل وكان بعضها مما كان الناس عندنا يزعمون أنها متجنسة أي هي من الجن الذي اتخذوا أشكال الحيات ، مما جعلني أعتقد بأن هؤلاء الذين أراهم الآن هم من الجن غير أنني لا أستطيع الجزم بذلك .

قال : وقد دلني على ذلك أن هرا أعرفه كان يأتينا منذ أن كنت صغيرا وكنت أفزع منه مثلما يفزع منه الصغار ، وكان أهلنا يقولون : إنه جني متلبس بشكل الهر وهو القط . وأنا أعرفه يقينا من كثرة تردده علينا وإن كنا نفقده أحيانا ولا ندري أين يذهب .

قال : وكدت أناديه باسمه الذي كنا نعرفه به وهو (هران) وأقول له : تعال يا بس يا (هران) غير أن الخوف عقد لساني وإذا به يتحول وأنا أنظر من هيئة القط إلى هيئة أخرى لا أستطيع وصفها على وجه الدقة ، لأنني لم أستطع تصورها بحيث صار كالجسم الخيالي أو الخيال الجسماني الذي ليست له علامات محددة ، ولا يشبه ما نعرفه من الأجسام .

جاء (هران) بعد ذلك إلى هذا الباب الذي أنا فيه وتبين أنه هو الطريق الذي كان يخرج به إلينا ، وإذا به يجدني فحدثني بلسان عربي مبين قائلا : حياك الله يا (غطيمل) أنا أحبك يا غطيمل لأنك تطعمني من عشائك ولا تضربني ، بل إنك تضرب الذين يريدون أن يضربوني من الصبيان وكنت تقول لهم : هذا بسي ، وأنا الآن بسك حقيقة . سوف أجازيك على ذلك بأن أجعلك ترى ما لم يره الإنس الآخرون .

قال لي : هذا عرس عندنا - نحن الجن - يريد أحد أمرائنا أن يتزوج بامرأة من أمراء جماعة أخرى من الجن .

وسوف أريك حتى دقائق ما يحدث هنا ، ولا تخف من شيء فأنا أحميك من كل شيء وأنا كبير في القوم وسوف أكون معك حتى تنتهي زيارتك هنا .

قلت له : ولكنك تعرفني - يا هران - ضعيف البصر لا أكاد أرى شيئا ، فقال : هل يخفى عليك شيء الآن مما هنا ؟

فقلت : لا ، فقال : كذلك لا يخفى عليك شيء منه ومن مثله في المستقبل ، إن أحوالنا نحن الجن ، وكذلك كل ما نستعمله من أثاث

وأدوات لا يحتاج إلى بصر العين ، لأننا ننفذ إلى ما وراء العين من الدماغ فتنطبع صورنا في دماغ الإنسان ، ومن ثم في ذهنه بدون المرور بالعين .

ثم قال بجزم وشدة : ولكن ، تذكر يا (غطيمل) أن عالم الجن غير عالم الإنس وأننا لا نسمح لأحد بمشاهدة ما عندنا إلا إذا كان قد أحسن إلى أحد منا مثلك ، وسوف أتجول بك هنا وأترجم لك ما يقال وليس لي إلا شرط واحد وهو أن لا تسمي الله تعالى أبدا حتى تخرج من عالمنا لأن لدينا مدعوين من الجن الكفار الذين إذا سمعوا اسم الله هربوا أو ذابوا كأنهم نور المصباح الكهربائي الذي قطعت عنه الكهرباء فجأة ، أما المسلمون منا فإن اسم الله لا يضرهم ، لأنهم لا يضرون المسلمين من الإنس .

وقف (دحام) هنيهة يبلع ريقه وكأنما كان يبذل مجهودا صعبا في نقل ما قال صاحبه (غطيمل) ولكن القوم قالوا بصوت واحد : وبعد ذلك ، ماذا حصل يا (دحام) ؟

فقال دحام : قال غطيمل : ثم أخذ هران يسير بي وسط هذه الأشكال التي ليس لها شكل مميز إلا الغموض وعدم الوضوح بالنسبة إلي .

قال : وبعد قليل حصلت ضجة وضوضاء وقال هران : هاهو الأمير أقبل . قال غطيمل : فرأيته على هيئة كرة غير متساوية الكروية وقد خرج منه ما يشبه الأذرع ، والغريب أنهم سلطوا عليها أضواء من الظلام . وهنا استفهم القوم من دحام عن معنى أضواء من الظلام فقال : إنني سألت (غطيملا) عن ذلك ، فقال : إنها ترسل ظلمة شديدة أحاطت بجسد الأمير ، مثلما يحيط النور عندنا بالشخص المهم أو بالشيء المهم .

قال : والغريب أنهم أجلسوا الأمير في مجلس يبدو كأنه في الهواء فليس تحته شيء يقعد عليه ، وليس فوقه شيء قد علق فيه .

قال : ثم بدأت أصوات منسجمة لم أفهم منها شيئًا لكن (هران) قال : هذه موسيقانا ولكنني لم أطرب لها فطلبت منه أن نتجول في هذا المكان المتسع الذي كان فيه ما يشبه الغرف ، فيها أعداد من تلك الأشكال الغريبة المتحركة .

وعندما حاذينا إحداها أشار من فيها إلينا وكلم (هران) بما اعتبره كلاما وأنا لا أسميه كلاما لأنه ليس فيه حروف واضحة وإنما يشبه

الوصوصة أو الأصوات المختلطة غير الواضحة فقال (هران):

إنها حسناء من بنات الجن طلبت مني أن أدخل أنا وإياك إلى غرفتها .

قال غطيمل ثم قال لي هران بالعربية التي تبين أنه لا يفهمها منهم غير القليل ، إن هذه الجنية الحسناء قد عشقتك لأنني سبق أن مررت بمكانها أكثر من مرة ولم تقل لي شيئا فارتجفت من ذلك ، وقلت : إن جماعتنا يقولون : إن الجنية إذا أحبت الإنسي (جننته) فقال هران : هذا ليس صحيحا على إطلاقه إنما يفعل ذلك الأشرار من الجن وأما هذه وأمثالها فلا .

قال غطيمل : فدخلنا غرفتها المزعومة وإذا برائحة طيبة تفوح منها وإذا بصاحبتها في أعلاها تبدو كأنما هي معلقة في السقف ، ثم تبين لي أنها كالذي فقد الجاذبية الأرضية ممن يكونون في سفن الفضاء

فقال لي هران : إنها تقول : إنني كنت أتمنى أن يكون لي زوج من الإنس ، لأنهم أفضل منا وهم أيضا أكثر وفاء للإناث من الذكور عندنا . وقال : إنها تقول : إنها ترضى منك بالقليل ، فيكفي أن تزورك لماما !

قال غطيمل : فاضطربت وقلت : ما معنى ذلك ؟ قال : أن تقترب منك ولا تخالطك حتى تكون أنت تبدأ بمخالطتها أولا .

فقلت لها : إنني أشكر لك عاطفتك نحوي ، غير أنني متزوج وأنت يبدو أن لديك (إنسانية) فقاطعتني قائلة : قل : عندك (جنانية) - نسبة إلى الجن - أكثر من غيرك . فقلت ذلك .

قال : وكنت أضيق بهذه الحالة حتى شعرت أنني على وشك أن أختنق لأن نفسي صار يضيق ، فقال لي (هران) : هذا طبيعي ، لأن بيوتنا هذه مكيفة ضد الأوكسجين الذي تستنشقونه ، ولولا أنني أعرف ذلك وأنا معي أنبوبة من الأكسجين أتنفسها أمام وجهك وأنت لا تحس ذلك لاختنقت فعلا ، فقلت له : إنني أريد أن أخرج من هذا المكان وأعود إلى أهلي ، فقال : لكن البرنامج طويل ، وقد بقيت أشياء مشوقة .

فقلت : ولو ، فسار معي حيث الباب الذي دخلت منه ، فلما رده أظلمت الدنيا في عيني وصرت لا أرى شيئا ثم أحسست لو كان أحد دس في يدي قطعة من الذهب الثقيل ، ومن ذلك الممر وصلت إلى البئر وأنا لا أبصر شيئا ثم صعدت منه إلى الأرض وأنا لا أكاد أبصر .

قال دحام : وهكذا انتهت الحكاية ولديه حكايات أخرى لكن بعضها لا أحفظها كلها ، وبعضها لا أحب أن أزعجكم به ، فعلق أحد الحاضرين على هذه القصة بأنها خرافة ، وسأل آخر (دحام) عما إذا كانت رؤيا رواها غطيمل ؟ فقال : لم يقل لي : إنها رؤيا وإنما رويتها لكم كما قصها علي .

وهنا كان موعد انفضاض مجلسهم فتفرقوا على أن يقص دحام عليهم قصص الرجلين الباقيين وهما صاحبا (غطيمل) غير أن (المطوع) صح من المرض الذي هو فيه وعاود الجلوس معهم وعاود وعظهم المعتاد .

وماذا عن (لاقط) ؟

لقد سارت الحياة بلاقط من حسن إلى أحسن فابنه عبد الرحمن عائد نادما على ما فرط منه وصار يعمل معه في الفلاحة كما يريد أبوه ، كما أن المعاملة الحسنة التي صار (ملحوق) يلقاها من زوجته (نفلا) جعلته يحسن معاملة والدها حتى إنه عندما حان موعد صرام النخل واستيفاء ماله على (لاقط) من التمر لم يحضر على عادته وعادة التجار وأرسل إلى لاقط يقول له : أرسل الذي يزيد عن حاجتكم من التمر

وأخبرني كم هو من أجل أن أنزله من الدين الذي عندك لي في ذمتك .

لقد صارت (نفلا) تعامله معاملة كريمة مثلما كانت تعامل غيره إلاَّ في شيء واحد وهو معاملة الزوج لزوجته في الفراش الأمر الذي لم يصبح ذا قيمة كبيرة له ، لأنه أصابه مرض أضعفه عن ذلك .

وشيء مهم جداً في حياة (لاقط) لأنه يحصل له لأول مرة في حياته وهو أن (باخت) بعث إليه أن يأتي إلى البلدة وقال له : لقد أرسل إليَّ الأعرابي الذي معه غنمك يقول : إن إحدى الشياه الأبكار ولدت توماً خروفاً وشاة صغيرين وأنها تساوي الآن مبلغاً جيداً من المال لأن العشب كثير في البر والذين يحبون تربية الأغنام للنما واللبن كثير .

وذكر باخت أنه يظن أنها يمكن أن تباع بتسعة ريالات مع ولديها ، يأخذ منها الأعرابي ريالاً وهو ربع الربح منها لأن رأس مالها خمسة ريالات ، ويأخذ الباقي (لاقط) .

قال باخت للاقط : أنا الذي يا لاقط أشرت عليك بأن تستثمر نقودك في الغنم أشير عليك الآن أن تبيع هذه وتتوسع بثمنها وتنفع الراعي بحصته منها ولديك الآن غنم لا بأس بها من الشياه وأولادها .

وكان هذا شيئاً لم يحلم به (لاقط) لذلك وافق وبيعت بتسعة ريالات وربع أخذ الأعرابي ربع ما زاد عن ثمنها الأصلي وأخذ (لاقط) الباقي .

وكان أول ما فعله أن اشترى دلة جيدة بريالين وقهوة بريال وقليلاً من الهيل ، ونادى أصدقاءه ليشربوا القهوة عنده ولم يصدقوا ذلك أول الأمر لأنهم كانوا يعلمون من حاله وحال أمثاله أنهم لا يستطيعون شراء القهوة .

ولم يكن في شربهم القهوة عنده أول الأمر ما يكدره إلاَّ أن (الفناجيل) التي اشتراها لم تكن كافية لهم جميعاً لذا سكب القهوة أولاً لكبار السن منهم ثم لما اكتفوا أعطى من هم دونهم .

وقد كان حصوله على دلة القهوة وارتقاء الحال به إلى أن يسوّي القهوة ويدعو جيرانه بل حتى جيران جيرانه إلى شرب القهوة عنده مدعاة لحسد بعضهم له لأن أكثرهم مثله لم يكونوا يستطيعون الحصول على ثمن الدلة وشراء القهوة ، ولذلك ظنوا أنه قد استدان ثمنها ، لأن الاستدانة كانت الوسيلة الوحيدة للحصول على المال ،

فصاروا يذكرون الاستدانة وما يفعله بهم الدائنون من المعاملة السيئة ومن الغبن في البيع والشراء الذي قد يصل إلى درجة النهب .

وقال أحد الذين منهم يصوغون الحكايات ويروونها للناس :

يا جماعة ؛ ما دام أننا نشرب من قهوة (أبو عبد الرحمن) الله يكثر خيره أريد أن أقص عليكم قصة مستدين وديانه كما سمعتها من الطرفين الدائن والمستدين ومن الكاتب بينهما وهو المطوع .

اتفق الدائن الذي هو التاجر واسمه حمدان الصَّرَّار مع المستدين على النسبة المئوية أوالعشرية ، كما يعبرون بها وذلك بأن يتفقا على شراء سلعة من السوق مثل طاقات من القماش ، وأن يضاف إلى قيمتها التي اشتراها بها التاجر الزيادة التي اتفق مع المستدين عليها في أول الأمر على أن لا يحل الدين إلاَّ بعد أجل هو عام واحد في الغالب ، وقد طلب أحد المستدينين الذين لا يبالون بارتكاب المعاصي من حمدان أن يعطيه النقود رأساً إلى أجل مع إضافة النسبة التي اتفقا عليها وهي ٣٠٪ فنهره التاجر وقال : لا ، هذا لا يجوز ، هذا ربا ، كيف تبيع دراهم بدراهم بيع وشراء وبزيادة ؟

فقال المستدين :

يا عم حمدان ، كلها زيادة في زيادة بس أنتم تحيلون على الله ، والله سبحانه وتعالى ما تنفع عنده الحيلة .

فغضب حمدان الصرار من ذلك الرجل وأبى أن يداينه ، ولم يقبل أن يرضى عنه ويتم الصفقة معه إلاَّ بعد استشفع بصديق له ولكن لا تزال كلمات ذلك الرجل المستدين ترن في عقل حمدان وبخاصة اتهامه إياه بأنه يتعامل بالربا وبأنه يتحايل على الله .

وليس ذلك لخوف حمدان من الله فهو قد سمع قبل ذلك من بعض طلبة العلم الورعين ما يشبه هذا الكلام في المعنى ، ولم يلتفت إليه ، وإنما لأن ذلك الرجل قد اتهمه بطريق غير مباشر بقلة التدين ، وعدم المبالاة بما يسخط الله وهو أمر يقدح في مكانة الرجل الاجتماعية ، ويضعف من قدره في النفوس ، ولذلك عندما قبل حمدان أن يتعامل معه لم يقبل أن يعطيه سلعة مضمونة الثمن ، بحيث لا تزيد قيمتها في السوق كثيراً ولا تنقص نقصاً شديداً في السوق مثل (طاقات) القماش حتى لا يجد الرجل الشاهد على ما يقوله عن حمدان ومعاملته الربوية إذا أراد أن يتحدث عنه في المستقبل .

وإنما قال له حمدان :

اسمع يا عزيز - وهذا اسم المستدين - ما عندي لك إلاَّ هالحمارة أو البقرة ، أنت تبي تشريها العشر ثلاثة عشر إلى الدور - أي إلى مدة سنة - والاَّ على هواك ، ما عندي لك غيرهن .

ولما كان (عزيز) أو عبد العزيز كما سماه أهله مضطراً إلى الحصول على شيء من النقود يدفع منه أجرة يسافر بها إلى العراق مع أحد الجمالين ويترك منه شيئاً لزوجته وابنته الصغيرة فإنه قد قبل بذلك وهو يقول في نفسه : إذا آذاني عند الدين آذيته عند الوفاء .

ثم قال لنفسه :

بس أخاف انه يشكوني للامير .

ثم ضحك في سره وقال : وعلى ما قال المثل : إن مسكت الجمرى فقطع آذانه أنا أريد أن أسافر إلى العراق ، ولا أدري متى أجي يمكن ما اجي إلاَّ عقب سنين ، لكن خله يستاهل لأنه طماع ما يفهم ، ثم أدركه عنصر الطيب في نفسه فقال :

لكن هذا صاحب حق لو أنا أبغضه لابد أن أعطيه حقه ، وبعد فالمثل يقول : قل خير يقوله الله . لازم إني أنوي النية الطيبة

حتى إن الله يرزقني وأوفيه ، وأجي معي كسوة لامرتي وبنيتي واتنومس قدام الناس ، أي نعم ، لابد اني أوفيه إذا رزقني الله ، لكن متى ؟ ما أدري متى ما رزقني الله .

كان (عزيز) يطرح على نفسه هذه الأسئلة وأجوبتها بينما كان حمدان قد ترك غرفة القهوة إلى داخل البيت ليخبر أهله أنه سيحضر معه إلى مكان المواشي رجلاً غريباً حتى يبتعد النساء عن الطريق فلا يراهن .

وقد صحبه إلى مكان الماشية وأراه بقرة قال : إن ثمنها خمسة وثلاثون ريالاً ، وحماراً قال : ثمنه خمسة وعشرون ، وشاتين بعشرين ريالاً ، وقال : تخير إحداهن أو ثنتين منهن بالثمن اللي قلت وزد عليه معاشرتهن العشر ثلاث طعش - أي ٣٠٪ .

فقال عزيز :

يا عم ، أريدهن كلهن

فقال حمدان :

تريدهن كلهن ؟

وضحك ضحكة عريضة فيها من معاني التعجب والاستهزاء أكثر مما فيها من معاني الفرح .

وأردف قائلاً : انت تتدين المواشي كلهن ؟ من أين لك توفيني غداً إذا حل الدين عقب سنة ؟ انت تظن أن السنة بعيدة ؟

السنة - يا وليدي - قريبة ، لا ، لا أنا ما أدينك أكثر من خمسة وثلاثين ريال وعساك تقدر توفيهن !

ولم يكن حمدان يعرف بالطبع نية (عزيز) في السفر إلى العراق في رحلة لا يدري متى يعود منها ، ولا يدري كيف تكون عودته إذا عاد .

وقبل (عزيز) أن يأخذ البقرة لأنها أكثر ثمناً ، ولو كان يعرف حقيقة ثمنها الحاضر ، ولو كان أنه سيعيد إلى الرجل نقوده عندما يحل أجل سدادها لما اختار البقرة .

وقال عزيز لحمدان :

خلاص يا عم أريد آخذ البقرة ، وأسرع ينحني إلى الأرض ليحل رباطها ولكن حمدان سارع أيضاً إلى عضده يجذبه به ويقول :

تريد تاخذ البقرة الآن ؟ ما يحصل - ياوليدي - لابد من كتابة وشهود .

فسأله عزيز : متى يا عم ؟

فأجابه حمدان :

إذا صليت الظهر فتعال ، اشرب القهوة وخذ البقرة .

ولم يكن الموعد بعيداً إذ كان الوقت صباحاً عندما كانا يتحدثان .

وعندما انتهت صلاة الظهر قال حمدان لإمام المسجد :

يا المطوع ، أريدك عقب الصلاة تكتب لنا حرفين .

وفرح الإمام بذلك لأن معنى الكتابة لحمدان أنه سيحصل على قدر من القهوة الجيدة (المبهرة)بحب الهيل ، وعلى بخور العود الأزرق الذي لا يحصل عليه إلاَّ في مناسبات لا تتكرر كثيراً .

كما أومأ حمدان إلى أحد المصلين الذي أسرع إليه فقال له حمدان : تعال نشرب القهوة أنا وانت والمطوع الآن . فقال الرجل : (سم) .

وانطلقا معاً فوجدا (عزيز) قد سبقهما إلى الباب فدخلوا جميعاً إلى غرفة القهوة وأخذ حمدان يكمل صنع القهوة ، فقد كانت النساء قد بدأن بإعدادها ولكنه جاء قبل أن ينتهين منها .

ورغم أن الوقت لم يكن بارداً فإنه وضع حطباً جديداً على النار لا رخصاً بالحطب عليه ، وإنما طلباً للوجاهة

التي درج الناس عليها وهي أن الإكثار من وضع الحطب على النار من مظاهر الوجاهة .

وبينما كان حمدان يعالج أمر القهوة حضر إمام المسجد فقال له حمدان بعد أن اطمأن به المجلس وسأله عن حاله وعياله مع أنه كان قد سأله عن ذلك منذ لحظات عندما التقى به في المسجد ولكنها أسئلة ذات طابع روتيني بحيث لا ينتظر السائل الإجابة عليها .

قال حمدان :

الله يسلمك يالمطوع أنا بعت على عزيز بقرة إلى الدور - أي لمدة سنة - واحب إنك تكتب لنا

فقال الإمام :

طيب هات دفترك .

فناوله الدفتر إذ كان حمدان قد أحضره من قبل فكتب فيه الإمام ما يلي :

أقر عندنا عبد العزيز بن محمد بن رمث بأنه قد اشترى من حمدان بن سند الصرار بقرة .

وهنا التفت إلى حمدان وقال :

وش لونها ؟

فقال حمدان :

دبسا - أي دهماء -

فكتب : دبسا .

ثم قال لحمدان : دبسا ، وبس ، وش هي بقرة عشرا والاَّ والد والاَّ دافع والاَّ حائل ؟

فقال حمدان :

بقرة وبس ، شافها عزيز وقبلها وعرفها .

هذا ، ولم يعترض (عزيز) على ذلك وإن كان لم يتأملها ولم يعرف عنها شيئاً إلاَّ لمجرد أنه قد رآها وهو ليس عارفاً بالبقر ، ولم يسبق له أن ملك بقرة ، وليست تهمه البقرة وإنما يهمه أن يحصل على ثمنها مع أن الحصول على ثمن البقرة كاملاً يقتضي أن تكون خالية من العيوب .

وقد واصل إمام المسجد كتابة الدين .

فكتب بعد وصف البقرة بأنها دبسا بثمن قدره وبيانه ثم توقف والتفت إلى عزيز قائلاً :

كم ثمن البقرة ؟

فأجاب :

خمسة وثلاثين ريال .

فاحتد حمدان وقال :

بس يا المطوع انتهينا من هذه البيعة لا تكتب

فاستغرب (المطوع) ذلك ، وقال :

ايش السبب ؟

وفي الوقت نفسه كان عزيز يقول بشفقة ولوعة :

ويش السبب يا عم حمدان ؟

فأجاب وهو لا يزال محتداً :

(لأننا بدأنا بالمشاكل من الآن ، ثمنها خمسة وثلاثين قبل المعاشرة وبعد المعاشرة ثمنها خمسة وأربعين ريال ونصف ، العشر ثلاثة عشر .

فأسرع عزيز يقول :

صحيح يا عم ، أنا نسيت .

الواقع أنه لم يتعمد أن يذكر ثمن البقرة دون فرق التأجيل لأنه يعلم أن ذلك أمر مستحيل ، ولكن كان ذهنه قد انصرف إلى ثمنها الذي كرر حمدان ذكره أثناء بحثهما في قيمتها .

فكتب (المطوع) :

خمسة وأربعين ريال ونصف مؤجلات يحلن . .

ثم توقف والتفت إلى حمدان الصرار متسائلاً عن موعد حلول الدين ، فأجابه قائلاً :

إلى الدور ، يعني عقب سنة .

فسأل المطوع عن تاريخ اليوم من الشهر ؛ فلم يعرفوا ذلك بالتحديد وإنما عرفوا أنهم في الأيام الأولى من شهر رجب فقال حمدان الصَّرَّار :

خلهن يحلن انسلاخ جماد الثاني أحسن لأن ثلاثة أيام أو أربعة ما لهن أهمية ولم يعترض (عزيزّ) على هذا الموعد الذي قلص من مدة السنة أياماً قليلة فواصل المطوع كتابته :

انسلاخ شهر جماد ثاني عام ١٣٢٤هـ ... وهنا نادر حمدان الصَّرَّار وقال :

اكتب يا المطوع إن عبد العزيز شايف البقرة وعارفها وصابر بكل عيب يطلع فيها ، وانه أخذها على شرط أنها لحم في زبيل .

فعقب عزيز على ذلك بقوله :

ما يخالف ، اكتب يا المطوع .

فكتب المطوع : وأقر عبد العزيز أنه عارف البقرة وأنه صابر على كل الذي فيها من العيوب .

ثم توقف متسائلاً دون أن يوجه سؤاله إلى أحدهما بالذات قائلاً :

هو هنا رهن ؟)

فأجاب عزيز بقوله :

والله ما عندي شي أرهنه .

فقال حمدان :

صحيح ايش عنده يرهنه ؟ ما عنده إلاَّ ثوبه الخلق اللي على ظهره لكن هذا شاب نشيط ذراعه كيس ، إن شاء الله يشتغل ويوفينا .

فعلق (المطوع) على ذلك بقوله :

زين ، وكتب : شهد بذلك إبراهيم بن عبد الله المخلوق وشهد به كاتبه عبد المحسن بن ساكت المصلاح.

قال المتحدث للقوم وهم يتناولون قهوة لا قط :

هذا أنموذج من المعاملات التي كان يعامل بها حمدان الصرار الذين يأتون إليه من المستدينين المحتاجين ، ولم تجعله ثرياً كبيراً لكونها أولاً ليست بالكثيرة ، وثانياً لأن بعض الذين يستدينون

منه لا يوفون دينه ، إما عجزاً وإما طلباً للنكاية به ، لقاء ما فعل بهم عندما جاءوا إليه مضطرين !

وبعد أن فرغ الرجل من حكاية (عزّيز) ودَيّانه ، كانوا فرغوا من شرب القهوة ، وقد أراد أحدهم حسداً للاقط قاصداً لفضيحته أن يزيد من شرب القهوة وألاَّ يكتفي كما يكتفي غيره منها بخمسة (فناجيل) أو ستة ، فصار يشرب ويشرب . من أجل أن ينفد ما في (الدلة) من القهوة ، فيعيبه بذلك ولكن أحد العقلاء الحاضرين لمزه بقوله : يا جماعة ، القهوة للرأس ما هي للبطن ، ولا هي ماء ، ولبن يملأ الإنسان بطنه ، فخجل ذلك الرجل وقال للاقط : يكفيني هذا الذي شربته ، الله يكثر خيرك !

أما (لاقط) فكأنما اعتبر هذا الأمر التافه وهو صنع القهوة في بيته وبدلة يملكها تحولاً جذرياً أو هو بداية التحول الجذري في حياته إلى الأحسن .

وقد سبق ذلك أن عاد إليه ابنه عبد الرحمن الذي كان هرب منه لأنه لا يريد أن يعمل عملاً جاداً في فلاحة والده ، ولكنه جرب العمل

عند الناس فوجد أنه أشق من العمل عند والده إضافة إلى أنه بدون أجر .

ثم تبع ذلك زواج أخته الثانية من رجل ماتت زوجته ، وبذلك كفت أخاها مؤونة إعاشتها .

وشيء مهم آخر وهو أن صديقه (باختاً) استدعاه إلى البلدة وأخبره أن الراعي منيحان البدوي الذي عنده غنمه هو حاضر الآن في البلدة يريد أن يلقاه لأمر مستعجل ، وعندما وصل (لاقط) إلى البلدة وجد الأعرابي معه خروف سمين فقال للاقط : إن هذا أحد الخرفان التي لك عندنا وقد انكسرت رجله لأنه قفز فوق حاجز صخري من مكان عال قليلاً فهو الآن لا يستطيع أن يسير مع الغنم ويخشى عليه من الذئب أن يأكله ، بل إن الذئب سيأكله إذا خرجنا به إلى الرعي ، وقد جلبته في السوق فسيم مني ثلاثة ريالات ونصف لأنه كسير الرجل سامه الجزارون ولو كان سليماً كان ثمنه خمسة ريالات أو خمسة ريالات ونصفاً .

فأشار باخت على (لاقط) أن يأخذ الخروف بأربعة ريالات يدفع للأعرابي منها ريالاً واحداً هو نصيبه من الربح وهو الربع لأن الخروف

كله ربح فهو من انتاج شياهه وليس من الغنم التي هي رأس المال .

قال ذلك للاقط لأنه يعرف أن حاله حسنت وأنه لا يشق عليه أن يدفع الريال مما تبقى عنده من ثمن الشاة التي باعها مع ولديها .

قال باخت : وأشير عليك - يا لاقط - أن تأخذ هذا الخروف وتذبحه لأولادك وتأكله أنت وأسرتك فهو كله ربح ، وبذلك تذوقون طعم هذا الرزق الحلال الذي رزقكم الله من غير تعب ولا كدٍ منكم .

لم يصدق (لاقط) ما سمعته أذنه ، فلم يكن يحلم بأن يأتي عليه يوم يستطيع فيه أن يذبح خروفاً في بيته ويأكله كله هو وأهل بيته ، وهو الذي كان يتمنى أن يحصل عل مقدار ضئيل من الودك وهو الشحم المذاب ، فلا يستطيعه ، لاسيما بعد أن قال له (باخت) : إن هذا الخروف سمين وفيه ودك كثير ، ولما رأى (باخت) تردد (لاقط) في قبول هذه الفكرة قال له : يمكنك أن تفكر في الأمر وتبيعه على الجزارين إذا لم تحب أن تذبحه عندك .

راقت هذه الفكرة لـ(لاقط) فأجاب صديقه باختاً بأن هذا هو الأوفق له ، قال ذلك ولا تزال ترن في أذنه وتدغدغ عواطفه

أن يتمكن من ذبح خروف له لأول مرة في بيته ، ويأكل لحمه ، وحتى لو عزم على ذلك فإنه لا يجرؤ على أن يقول ذلك عند (باخت) حذراً من أن يصيبه بالعين إذا علم به ، ظناً منه أن جميع الناس مثله في عدم القدرة على اللحم والشحم وإن كان أكثرهم كذلك .

لذلك قال لباخت : إنني أخاف أن أحمل الخروف على حماري وأدخله بيتي في النهار أن يراني إنسان مشفوح عيَّان فيصيبني بالعين .

فضحك منه باخت وقال له : ماذا تريد ؟

قال : أريد أن أترك الخروف عندك حتى المساء فآتي إليك بعد صلاة المغرب وأحمله إلى القرية بالليل وأدخل به إلى مكاني فيها بالليل ، أنت تعرف إن أهل قريتنا لو يشوفون أثر دسم في أيدي الناس أو وجوههم أصابوهم بالعين !!!

أول ذبيحة :

حمل (لاقط) الخروف على حماره من بيت باخت بعد صلاة المغرب حيث ساد المنطقة ظلامان أحدهما ظلام حقيقي مادي ، إذ لا يكاد المرء يلمح أية بارقة من نور ، لأن أهل المنطقة يضنون

بالوقود ، ولأنهم كلهم ينتظرون حلول وقت العشاء ليصلوا ثم يذهبوا إلى النوم بعد تعب النهار الطويل .

والظلام الثاني أنه لا يوجد من يمشي في مثل هذه الساعة رغم كونها ساعة مبكرة من الليل ، ولكن لا شيء يوجب المشي أو التجول في الظلمة من دون فائدة أو عائد مادي .

كان (لاقط) وهو في الطريق يهمهم بالدعاء بأن يوصله الله سالماً إلى بيته حتى يتحقق هذا الأمر الذي لم يكن يحلم به وهو امتلاك خروف يمكنه أن يذبحه ، كما أنه كان يهمهم أيضاً بالدعاء بأن يكفيه الله شرَّ عيون خلقه .

وكان إلى ذلك يفكر في كيفية إخبار زوجته بهذا الأمر ، لأن المفاجأة سوف تهولها إذا عرفت به .

لذلك عندما وصل إلى (فلاحته) أنزل الخروف من الحمار وتركه إذ لا يستطيع أحد أن يعرف أنه خروف في الليل البهيم إلاَّ إذا وصل إليه ولمسه ثم ربط الحمار في مكانه ، ودخل إلى امرأته فبادرته تسأله عن سبب تأخره وقد وقع في بالها أنه ربما كان تزوج وأنه قد يقضي الليلة عند زوجته الجديدة لذلك كانت محتدة .

فقال لها بفرح وسرور : اسكتي أقول لك لا يسمعنا أحد ، أنا معي خروف لنا ، ما أحد يطالبنا فيه !

لم تصدق زوجته كلامه لأول مرة ، ولما كرر عليها ذلك لم تفهمه ، حتى أسرع يجرها بيدها ويقول لها : تعالي انظري إليه إنه سمين جداً وعندما ينام الناس سوف أتعاون أنا وإياك على إدخاله الحوش لأن رجله مكسورة لا يستطيع المشي .

عندما وصلت إليه ولمسته فزعت فزعاً عظيماً لأنها كانت في حالة نفسية مضطربة إذ لا يمكن أن تتصور أنهم سوف يملكون خروفاً لهم خاصة يذبحونه ويأكلون لحمه ، كما أن الظلام صور لها أيضاً أن زوجها قد خُيِّلَ إليه الأمر تخيُّلاً ، ولذلك كان أول ما لمسته من الخروف أذنيه فظنت في الظلام أنهما أذنا كلب أو نحوه ، لذلك صرخت صرخة مكتومة وهي تبتعد عنه .

ولكن زوجها سارع يهدئها ويخبرها الخبر كله بأن هذا الخروف هو ولد شاة مملوكة له ، كان أرسلها مع راعي غنم بدوي ، ولم يكن أخبرها بالغنم من قبل .

ثم تركا الخروف وعادا إلى المنزل وبعد أن نام الناس بعد صلاة العشاء بقليل أخذ معه ذؤابة من عسيب نخلة أوقد فيه ناراً وأرى الخروف لزوجته ثم أطفأ النار وتعاونا على إيصال الخروف إلى البيت .

وهنا وصل الأمر إلى جديته فشاورها في ذبحه وأكله ، ولم تكن بحاجة إلى أن تستشار إلاَّ أنها قالت : أنا خائفة يا ابو عبد الرحمن أن الناس يدرون أن عندنا خروف ويصيبوننا بالعين ، فقال لها كيف يدرون ما عندنا أحد يخبرهم وأهل بيتنا أقول لهم : هذا ما هو لنا هذا موصينا عليه أحد الإخوة ولا تخبروا أحداً به . عندئذٍ اطمأنت الزوجة إلى جدية الأمر أنها سوف تنال هذا الخروف كاملاً لها ولأهل بيتها ، وفكرت في كيفية حفظ لحمه ، والانتفاع به .

فقالت لزوجها : لازم ما يطلع من لحم الخروف ولا شحمه شيء لأحد لأنه إن راح شيء منه رآه الناس وآذونا حتى أخواتك لا ترسل لهن منه أي شيء .

قال : هذا طيب ، ولكن كيف أعمل إذا قالت أمي : لازم تطعم أخواتك من اللحم ؟

فقالت له : الأحسن أننا نذبح الخروف في الليل إذا نامت أمك أو نروح لمكان بعيد عن البيت خفي عن الناس في طرف الفلاحة الفجر ونذبحه ولا تعرف أمك عنه أي شيء .

فوافق على كون أمه لا تعرف عن الخروف شيئاً لأنهما لا يستطيعان أن يمنعاها من إذاعة سره ، إلاَّ أن كون أختيه يحرمان من لحم الخروف وشحمه فكرة لم يوافق عليها فاتفق مع زوجته على أن يزعما أنه جاءه من رجل غني وأحب أن يرسل لأختيه قليلاً منه .

ولكنهما ظلا وقتا يترددان فيه عما يصنعان بلحم الخروف ، واتفق رأيهما على أن يجعلاه قسمين : أحدهما ما كان منه دسما كثير الشحم فإنه يطبخ بشحمه طبخا خفيفا من دون ماء بعد أن يقطع قطعا صغيرة ثم يحفظ ليؤخذ منه قليلا قليلا إداما للعشاء على مدى طويل ، والثاني ما غلب الهبر على الشحم فإنه يقدد بمعنى أنه يجعل قديدا بملح وينشر على حبال في داخل غرفة .

على أن يحفظ الجميع في الغرفة التي فيها التمر التي تغلق إغلاقا مستمرا لا يفتحها إلا (لاقط) .

عندما ذبحاه وأرادا قلي اللحم مع الشحم أو طبخه بدهنه اعترضتهما مشكلة رائحته .

وقالت زوجته : لكن لو شم أحدٌ الرائحة كيف يعرف أنها عندنا في هذا الليل ويصيبنا بالعين ؟

فقال لاقط : العين تصيب اللحم الذي له رائحة ثم كل من أكل منه أصابته .

الدائن الذي صار صهراً .

حسنت العلاقة ما بين التاجر (ملحوق التلاس) ومدينه (لاقط بن باتع الحصاد) مع استمرار وجود ابنة (لاقط) في بيت ملحوق ومعاملتها الحسنة لأهله ولأهل بيته ما عدا ما يتعلق بالمعاشرة الزوجية وهو أمر لم يعد ذا بال لدى (ملحوق) منذ أن اشتد به مرض كان يؤلمه وكان يحد من قدرته على ذلك .

وكان من أهم حسن العلاقة بينهما أن (ملحوقاً) حينما حان موعد صرام النخل أرسل إلى لاقط يقول له : إنه يشق عليه الوصول إليه في فلاحته ولذلك يطلب منه أن يرسل ما يكون عنده من التمر زائداً عن حاجته وأولاده يسدد به الدين الذي عليه والباقي يكون من ثمرة العام القادم .

وقد حكم (لاقط) من هذا التصرف بأن الدهر قد ابتسم له فعلاً فمحصول التمر هو الرئيسي عنده وهو الذي يحتاجونه في وجبة الغداء طول العام ومع ذلك كان شهماً إذ لم يزد على أخذ ما يكفيه من التمر لحاجته الضرورية ، أما الباقي فإنه كان يحضره على حماره على عدة دفعات إلى بيت ملحوق ليخزن مع التمر الذي عنده يتكسب به أو يدّين الفلاحين به بسعر فاحش كما سبق .

التاجر يموت :

ألمَّ المرض على التاجر (ملحوق بن تلاس البصاط) واشتد به حتى قضى نحبه بعد نحو أربع سنين من زواجه بنفلا الذي كان زواجاً ظاهرياً ، ولكن (نفلا) لم تقصر في القيام بواجبها تجاه الرجل وأسرته فيما عدا ما ذكرناه .

عين القاضي والأمير في البلدة لجنة من شخصين من الموثوق بهم لحصر تركته وقسمتها بين الورثة ووجد عنده مالاً كثيراً بالنسبة إلى ما يكون عند التجار في تلك البلدة وكان من ذلك عقار يشمل البيت الذي هو ساكن فيه وأرضاً فيها بئر تزرع قمحاً في بعض السنين وحائط نخل جيد .ولكنه كان حرص على أن تكون ثروته الكبيرة

التي يعول عليها هي من النقد ، فكان إذا ما زاد عنده شيء منها أودعه الأرض يدفنه فيها .وكانت (نفلا) قد عرفت المكان الذي كان يدفن فيه النقود لفطنتها ، وترددها على دخول مخزنه الذي كان يضع فيه الأشياء الثمينة وهو غرفة محكمة الإغلاق ، فهو وإن لم يكن يعطي (نفلا) مفتاحها فإنه كان يتسامح في طلب بعض الأشياء منها يكلف نفلا بذلك لثقته بها دون زوجته التي قبلها وأولادها فعرفت من ذلك مكان دفن النقود ، ولولا معرفتها به لظلت تلك النقود دفينة في الأرض لا يعرف عنها أحد شيئاً وربما تكون من حظ غريب يشتري البيت بعد جيل ، أوجيلين ، ويحتاج إلى حرث أرضه فيجدها كما كان كثير منهم يجدون أمثالها ويعتبر الواحد نفسه قد وجد كنزاً ليس له أهل لأنه لا أحد يدعيه وبخاصة أنهم كانوا يخفون النقود إذا وجدوها حتى عن أقرب قريب ، لأن حاكم البلدة إذا عرف بها أخذ قسماً منها ضرائب ، وربما يشيع خبرها فيطالب بها من كانوا سكنوا البيت في السابق .

اختارت (أم محمد) الزوجة التي قبل (نفلا) أن يكون البيت من حصتها وأولادها لأنها سوف تواصل البقاء فيه وليس لديهم بيت آخر . واختارت (نفلا) أن يكون حائط النخل لها .

كانت حصتها في ميراث زوجها (٩٧) ريالاً ، وقيمة حائط النخل حسبما قوَّمَهُ الرجلان (١١١) ريالاً .

وقالت (نفلا) لأبيها وأمها : لقد اخترت حائط النخل حتى يكون لنا خالصاً تعملون فيه ، ولا تكونوا أجراء في نخل غيركم ! ! !

وعندما تفوهت بهذه العبارة انهمرت الدموع من عيون والديها . .

وقالت لوالدها : إنه بقي من قيمة النخل (١٨) ريالاً ليكون كله ملكاً لنا فأسرع والدها يقول : إنها حاضرة وكان باع قسماً من الغنم الذي كان لدى الراعي في البراري وأخفى ذكره على أولاده حرصاً على ألاَّ يطالبوه بشيء منه إذا أعلنه .

البنت أنفع من الولد :

قال لاقط لزوجته : هل تذكرين وقت ما ولدت لنا (نفلا) وضاقت صدورنا نريد أن تكون ابناً فينفعنا ، ويحمل عبء مسئولية الحياة عنا ؟ وأنا قلت لك : ما يدري وين الخيرة فيه ، الله أحسن نظراً ؟

فقالت زوجته وقد تناثرت الدموع على عينيها : لا والله إلاَّ ما نسيت يا ابو عبد الرحمن يوم انك تقول لي : إن زوجة أخوك (جابت)

ولد ، ومرة جيراننا جابت ولد وانت ولدت (بنت) كأني أنا اخترت البنت على الولد .

فرق لها زوجها ، وقال : الذي راح راح ، الحمد لله ، الآن الله سبحانه وتعالى نفعنا بالبنت هذي (نفلا) أكثر من الابن هذا ، وبعد أن خرجت نفلا من عدة الوفاة بشهرين وكانوا انتقلوا إلى حائط النخل الذي يملكونه وتركوا ذلك الذي كانوا فيه وكان مملوكا لغيرهم بحيث كانوا يدفعون لأهله حصة من التمر ، تقدم شاب متوسط الحال ولكنه ليس فقيرا يخطب (نفلا) وقد خطبها لأن مستوى الأسرة قد ارتفع الآن .

وقد جرى دخوله عليها بعد خمس سنوات بالضبط منذ أن دخل عليها (ملحوق بن تلاس البصاط) وقد صار عمرها عشرين سنة !!!

انتهت